جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

# الخطاب الأدبى إلى الأبناء
# بين ثنائية الألم والأمل

إعداد

د/ ياسر السيد عبدالعال البتّا

مدرس الأدب والنقد فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

العدد السادس عشر
للعام ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م
الجزء الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٦٩٤٠/ ٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

خير خفى ما تحمله شخصية الأديب من بذور – قليلة أو كثيرة – تحددها بيئة ومصادر تكوينه، وعلى قدر صلاح هذه البذور يكون إيناع النبات وثمرته.

وليس لأديب أنْ يغفل عوامل التأثير في شخصيته وسرد أدبه، سواء أكانت هذه العوامل داخلية نتجت عن جوه النَّفسى في أسرته ونشأته أم خارجية نتجت عن بيئته المحيطة.

وقارىء الأدب يلحظ أنَّ الأدباء يتحدثون عن هذه المؤثرات على أنَّها موضوعات في أدبهم، وهم حيالها بين من يفيض في الحديث عنها أو عن بعضها، وبين مَنْ يكون حظه منها التطواف.

ومن أهم هذه الموضوعات حديث الأدباء إلى فلذات أكبادهم وزهرات قلوبهم، وتصوير عواطف الأبوة والأمومة والبنوة أعمق العواطف الإنسانية، فقد يبر الأبناء الآباء ويتعاطف الأخوة ويتحاب الأزواج، ولكن حب الآباء لبنيهم فريد في صفائه ونقائه وعمقه، لأنَّه مُنَزَّه عن الهوى بعيد عن الغرض. غير منتظر جزاء .. سر كبير من أسرار الحياة، ولا شك أنَّ هذه العواطف الإنسانية التى يوغل أثرها في الحياة لها كبير أثر في الأدب، وهل الأدب إلا تصوير للحياة تبدو صورتها كاملة في مراياه.

وقد ألهمت عاطفة البنوة الأدباء خطابًا أدبيًا بديعًا سجله الشعر آنًا والنثر حينًا، فكما أنَّ من وحى البنوة كتبًا[1] ووصايا ورسائل من وحيها أيضًا قصائد وأشعار، والأدباء في هذه الألوان بين من يكتب إلى أبنائه حزنًا وألمًا ورثاءًا، وهى المعانى محل دراسة الفصل الأول من هذه الدراسة في مبحثين، ومن يكتب إلى أبنائه فرحًا وأملاً ورجاءًا وهى المعانى محل دراسة الفصل الثانى من هذه

(١) منها كتب: "إلى ولدى" لأحمد أمين– ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣م، و"رسائل إلى ابنتى" – للدكتورة/ نعمات أحمد فؤاد– ط: وزارة الثقافة والسياحة اليمنية– صنعاء ٢٠٠٤م، وعدة طبعات مصرية منها: "دار البلسم" النشر عام ٢٠٠٦م، و "من والد إلى ولده" للأستاذ حافظ عوض – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.

الدراسة في مبحثين، وبين من اجتمعت له هذه المشاعر فكان خطابه إلى أبنائه خطرات نفس مزجت بين السعادة والألم في ثنائية تنهض هذه الدراسة أيضًا لرصدها وتحليلها، وذلك بمنهج تكاملى وتفسيرى يتطرق كثيرًا لبيان الانفعالات والعواطف التى أسهمت في جماليات النصوص مع تحليلها ودراستها من جهة الفن.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١)

الباحث

(١) سورة هود من الآية (٨٨).

# الفصل الأول
# الخطاب الأدبى إلى الأبناء (ألمًا وحزنًا)

ويضم مبحثين:

## المبحث الأول: فى الفقد والرثاء.
## المبحث الثانى: فى الصبر والعزاء

# الفصل الأول
# الخطاب الأدبى إلى الأبناء (ألمًا وحزنًا)

**توطئة:**

تتدلل الحياة على بنيها فترزؤهم بالآلام والمحن، والأدباء هم أكثر النَّاس شعورًا بالآلام وتأثرًا بالمحن رغم ما يتصفون به من شخصية حالمة ونفس مطمئنة ومزاج هادىء، وهم أكثر النَّاس استعدادًا للأنين الذى قد ينقلب ساعة الوجع الشديد نياحًا وعويلاً، ومن ثم كان الأدباء أيضًا هم أقدر الناس على تصوير لحظات الألم ولهف الحرمان وبث الشكوى، وزفرات الأسى والحزن، حين تنفع التجارب المرة صاحبها وتمنحه لونًا من الأنين والقلق النفسى والمعاناة التى حين تلم بالأديب يأسف لها وينقم عليها،لكنها بطريق آخر تكون له سببًا في إدراك معان جمة وأساليب فكرية وفنية صادقة تُعبِّر عن موقفه النفسى وآلام قلبه، وماذا عساه ينفع الأدب إن لم يكن مصدره القلب والوجدان؟، ومن ثم يكتسب تعاطف المتلقى إلى حد مشاركته الأديب في هذه الآلام.

وحين نتتبع مظاهر الألم في الخطاب الأدبى إلى الأبناء تبدو أكثر وضوحًا في تعبيرهم عن مشاعر الفقد والرثاء، والصبر والعزاء، وهى مظاهر قد تجتمع في وجدان الأديب، وقد يستبد به أحدها ويكون كافيًا لتشكيل نتاجه وربما لصياغة حياته.

# المبحث الأول
# فى الفقد والرثاء

**إذا كانت البنوة في الوجدان بحيث توحى بروائع الأدب والفن فلا شك أنَّها عند الحرمان أقوى، وشعور القلب بها أعظم، وألوان التعبير عنها أصدق؛ لأنَّ قائليها نفثوها وقلوبهم تحترق آلامًا وحسرة، وعيونهم تفيض دموعًا ورقة، حتى لنرى هذه الدموع والآلام مصورة على الصفحات.**

**ولا أدل على ذلك من هذه الدفقة من دموع ابن الرومى[1] في رثاء ولده:**

أبنـــيَّ إن أحـــزنْ عليـــك فلِـــى ∴ فـــى أن فقـــدتُكَ ســـاعةً حُـــزْنُ
وإنْ افتقـــدتُ الحـــزنَ مفتقـــدًا ∴ لُبِّـــى لفقـــدِكَ لَلْحَـــرى قَمِـــنُ[2]
بـــل لا إخـــالُ شـــجاكَ تعدَمُـــهُ ∴ روح أَلَـــمَّ بهـــا ولا بـــدنُ
تـــاللهِ لا تنفـــكُّ لى شـــجنًا ∴ يمضـــى الزمـــانُ وأنـــتَ لى شـــجن
والآن حـــين ظعنـــتُ عـــن وطنـــى ∴ سَـــمجَ المقـــامُ وطـــاب لى الظعـــنُ[3]

**يرى الشاعر مصابه في ولده جديرًا بحالة الشجن التى استبدت بقلبه وأفقدته عقله حتى ليفتقد الحزن نفسه حين تتعدى حالة الشجن والألم بدنه إلى روحه، فتخور قواه، فيزهد في زمانه فيتمناه يمضى، ومكانه فلا يطيب له العيش فيه.**

---

(١) ابن الرومى : (٢٢١-٢٨٣هـ/٨٣٦-٨٩٦م) : على بن العباس بن جريح، الرومى، أبوالحسن، شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبى، رومى الأصل، كان جده من موالى بنى العباس، ولد ونشأ في بغداد، مات فيها مسمومًا، وله ديوان شعر مطبوع . ينظر:[وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – لابن خلكان – تحقيق: د/ إحسان عباس ٣٥٨/٣- ط: دار صادر – بيروت ١٩٨٧م ].

(٢) قمن: هو قَمِنٌ بكذا أى حرى وخليق وجدير . [لسان العرب – محمد بن مكرم بن منظور – مادة (قمن) – ٣٤٧/١٣- ط: دار صادر – بيروت – دون تاريخ]، والأبيات من بحر الكامل.

(٣) "ديوان ابن الرومى" – أبى الحسن على بن العباس بن جريح – تحقيق: د/حسين نصار- ج٦ ص (٢٥١٥) – ط: دار صادر – بيروت – دون تاريخ.

وقد بدا من جهة الفن ما أفاده النداء بالهمزة في البيت الأول من شحنات ألم عاطفية توحى بإحساس قرب الشاعر من ابنه بعد الموت، وتعكس رغبته في أن يصل نداؤه لابنه القريب.

غير أن أكثر الظواهر الفنية تأثيرًا في هذه الأبيات جاءت موسيقية حيث ما أفاده " رد الأعجاز على الصدور"(١) – في ثلاثة منها – من ربط لفظى ومعنوى وتلاحم بين الأشطار، وكذلك ما أفاده الرد من تأكيد المعنى، وكأن أعجاز الأبيات جاءت مؤكدة لما تحمله صدورها من معانى، فضلاً عما أفادته الظاهرة من رونق خاص وموسيقا حزينة تعمق معنى الألم والحزن.

وفى نهاية قصيدته ينتقل ابن الرومى بالخطاب إلى لائميه على عدم خروجه من حالة الحزن المسيطرة على قلبه، ودفقات الدموع المنهمرة من عينيه، ينادى(٢):

يا عاذِلِى فى مثلِ نائبتِى ∴ تُلْفَى دموعُ العين تُمتَهَنُ
فدع الملامَ فإننى رجلٌ ∴ عدلٌ على العبراتِ مؤتمنُ
أنفقتُ دمعى فى مواضِعه ∴ لا الوكسُ يلحقنى ولا الغبنُ
أبكانى ابنى إذ فُجعت به ∴ لَمْ تُبكنى الأطلالُ والدِّمَنُ
وعكفت بالقبرِ المحيطِ بهِ ∴ فاعْذر فلا صنمٌ ولا وثنُ

بين الخبر والإنشاء ينكر الشاعر على لائميه عدم مشاركتهم له في مصابه، واستهانتهم بدموع عينه التى يذرفها في فجيعة كبرى وخطب جلل، مستعينًا بأساليب النداء والأمر ثم التوكيد بالنفى بعد الإثبات في التعريض بلائميه وأقرانه الذين تبكى أشعارهم – حين تبكى– الأطلال والعيش الرغيد، كما أنه يطلب إليهم المعذرة حين يعكف على قبر ولده فلا يغادره، فإذا كان هو المكان الذى توارت فيه آماله وانزوت أمانيه، ونمت فيه كآبته وأحزانه فهو أيضًا المكان الذى تسكن

(١) – وهو في الشعر:" أن يكون أحد اللفظين أو المتجانسين أو الملحقين في آخِر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره" . ينظر:[بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – عبدالمتعال الصعيدى – (٧٧/٤) – ط: مكتبة الآداب – دون تاريخ ].
(٢) – "ديوان ابن الرومى" – تحقيق: د/ حسين نصار– (٢٥١٦/٦).

فيه روحه حين تردّد مع أشباح الوحشة ندابات الحزن والأسى، وتتجلى في هـذا المعنى قدرة ابن الرومى على شحن الألفاظ بطاقة شعورية وأحاسيس ربما غيـر مألوفة لها، حيث حملت لفظة "القبر" مثلاً في الأبيات شعورًا يختلف في التعبيـر عن أحاسيس الوحشة والخوف والمكان الذى ينفر منه الناس وقد عنى بها هنـا هذا المكان المحبَّب زيارته والتردد عليه وربما البقاء إلى جواره، فهو الموضـع الذى يضم الحبيب الراحل.

وقد بدا من هذه القصيدة وغيرها لابن الرومى ما أسالته البنوة عند الثكل من بحر الدموع الذى يغترف منه هذه الدفقة أيضًا في رثاء ولده، يقول[1]:

أريحانـةُ الأنـفِ والعيـنين والحَشَـا ∴ ألا ليتَ شِعرى هل تغيرت عن عهدِى؟
سأسـقيكَ مـاءَ العـين مـا أُسـعِدت بـهِ ∴ وإن كانـت السُّـقْيَا مـع الـدمع لا تجـدِى
أعينـىَّ جـودا لى فقـد جـدتُ للثـرى ∴ بـأنْفَس ممـا تسـألانِ مـن الرفْـدِ
كـأنى مـا اسـتمتعتُ منـكَ بضـمةٍ ∴ ولا شمـةٍ فـى ملعـبٍ لـكَ أو مَهـدِ
أُلَـامُ لمـا أُبـدِى عليـك مـن الأَسَـى ∴ وإنـى لَـأُخفـى منـه أضـعافَ مـا أُبـدِى

هى مشاعر صادقة لقلب مكلوم ووجدان يفيض بالمرارة وتتفجر في أعماقه مشاعر الألم والحسرة، وعيون يطلب إليها ألا تتوقف عن دفق الدموع، ويبدو أنْ بلغ الأسى والحزن حدًا لا يقبل معه الشاعر لومًا أو اتهامًا بالمبالغة في الحـزن، فهو دائم الرد على لائميه في ذلك بأنَّ نفسه الملتاعة تضمر من الألـم والحـزن أضعاف ما تبديه.

ومن جهة الفن يبدو واضحًا ما يفيده " الاستفهام" بعد النداء في البيت الأول من تكثيف درامية المشهد وتجسيد آلام الشاعر ومرارته وتأكيد إنكاره أن يكـون حب ابنه وتعلقه به قد تناقص بعد فقده.

وإذا كان وصف البكاء والدموع معنى ملحًا في رثاء ابن الرومى لولده فأكثر منه إلحاحًا فكرة تمنى الموت بعده، ومن ذلك قوله يخاطبه[2]:

(١) "ديوان ابن الرومى" – (٢٠٢٥/٦) – مرجع سابق، والأبيات من بحر الطويل.
(٢) "ديوان ابن الرومى"–تحقيق: د/ حسين نصار– (٢٥١٥/٦)، والأبيات من بحر الطويل.

مـــا أصـــبحت دنيـــاى لى وطنًـــا ∴ بـــل حيـــث دارك عنـــدى الـــوطن

**وقوله في القصيدة نفسها:**

لهفِـــى علـــى سَـــبْقِ المنيـــة بـــى ∴ لـــو بيـــعَ لم يوجـــدْ لـــه ثمـــنُ

**ليس أدل على الحسرة التى تعتصر قلب الشاعر من تمنيه الموت بل وتلهفه عليه ليلحق بالحبيب الرَّاحل علَّه يأنس باللقاء، لكنَّه يعلم أنَّها أمنية بعيدة المنال، ولوكان الموت يشترى لم يكافؤه ثمن.**

**ويشارك ابن الرومى في التعبير عن هذا المعنى الشاعر ابن معصوم[1] الذى رثا ولده في ديوانه بقصيدة مطولة جاء فيها قوله يخاطبه[2]:**

تفـــديكَ لـــو قَبِـــل المنـــونُ فـــداها ∴ نفـــسٌ عليـــك تقطَّعَـــتْ بأَســـاها

يـــا كوكبًـــا قـــد خـــرَّ مـــن أفْـــقِ العـــلا ∴ فـــى ليلـــةٍ كسَـــت الصـــباحَ دُجَاهـــا

يـــا ليتنـــى غُيِّبـــتُ قبلـــك فـــى الثـــرى ∴ وسُـــقيتُ كـــاس المـــوتِ قبـــل تَراهـــا

أو لَيْـتَ عينـى قبـلَ تبصـرُ يومـك الـــ ∴ محتـــومَ كحَّلـــها الـــرَّدَى بعَمَاهَـــا

لم لا تُمنـــى المـــوتَ دونـــك مهجـــةٌ ∴ قـــد كنـــت تجهـــدُ طالبًـــا لرِضَـــاهَا

أم كيـف لا تَهْـوَى العَمَـى لـك مقلـةٌ؟ ∴ قـــد كنـــت قُرَّتَهـــا وكنـــتَ سَـــنَاها

لم يَبْـقَ لى فـى العـيش بعـدك رغبـة ∴ مـــا لِـــى وللـــدنيا وطـــولِ عَنَاهَـــا

**بدا أسلوب ابن معصوم أكثر استطرادًا في التعبير عن فكرة تمنى المـوت بعد رحيل ولده، فهو في هذه الأبيات يتمنى – لويقبل الموت– أن يفتـدىَ ولـده بنفسه التى مزقها الحزن والأسى، يتمنى لو سُقىَ كأس الموت وغُيِّب في الثـرى**

---

(١) ابن معصوم: (١٠٥٢-١١١٩هـ/ ١٦٤٢-١٧٠٧م): على بن أحمد بن محمد بن معصـوم الحسنى الحسينى، المعروف بـ (على خان بن ميرزا أحمد)، الشهير بـ (ابن معصوم)، عالم بالأدب والشعر والتراجم، شيرازى الأصل، ولد بمكة، وأقام مدة بالهند، توفى بشيراز، وفـى شعره رقة، من كتبه "الطراز"، و"أنوار الربيع"، و"وله ديوان شعر" .[معجم تراجم الشـعراء الكبير– تأليف وإعـداد: د/ يحيـى مـراد – ص (١٥١) – ط: دار الحـديث – القـاهرة ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م].

(٢) "ديوان ابن معصوم" – حققه: شاكر هادى شكر – ص (٤٧٧) – ط: مكتبة النهضة العربية – دون تاريخ، والأبيات من بحر الكامل.

قبل أن يعيش فقد ولده، يتمنى لو أصيبت عينه بالعمى قبل ترى غياب قرتها، ثم يؤكد زهده في الدنيا التى لم يتبق له فيها ما تطيب من أجله الحياة.

ومن جهة الفن يبرز لدى ابن معصوم في هذه الأبيات جانب التصوير بطريق التشبيه والاستعارة لا سيما تلك الصور التى بناها خياله الخصب في قوله:" يا كوكبًا"، "وكست الصباح"، و"سقيت كأس الموت"، " كحلها الردى"، بما فيها من رؤى تشخيصية وتجسيدية استطاع الشاعر أنْ يجعلها متنفسًا لعرض واقعه النفسى ومشاعره الحزينة، فضلاً عما أضفته على النص من ثراء المعنى وإغناء القيمة الدلالية.

وربما يعد أيضًا من التأكيد على فكرة تمنِّى الموت لدى الشاعر استطراده في ذكر المبررات، فهو يخاطب حبيبه الرَّاحل[1]:

قد كنتَ ساعِدِيَ الذى أَسطو بِهِ ∴ ويَدِى التى يَخْشَى الزَّمانُ سُطاها
تنفى الأَسَى عنِّى وتَحمى جانبى ∴ من كل كارثةٍ يعمُّ أَذَاهَا
واليومَ قد هَجَمَتْ علىَّ حوادث ∴ ما كنتُ أحذرُها ولا أَخشاهَا

يبدو من هذه الأبيات أنَّ الشاعر كان يرى في ولده عِزَّه على الأيام وحمايته من عوادى الزمان، واليوم وقد رحل تبطش به الدنيا وتتخطفه سهامها.

ولعل من هذه المبررات أيضًا ما يصف به الشاعر الدنيا من غدرٍ وبطش وتقلب واضطراب[2]:

دار قضتْ أنْ لا يدومَ نعِيمُها ∴ لا كان مسكنُها ولا سُكْنَاهَا
لا يُسْرُهَا باقٍ ولا إِعْسَارُهَا ∴ سيَّان حالا فقرِها وغِنَاهَا
مقرونة خيراتُها بشرورها ∴ ونعيمُها بعنائِها وشَقَاهَا
إنْ أضحكتْ أبكتْ وإن برَّتْ بَرَت ∴ وإذا شفَت شفَّت عليلَ ضَنَاهَا

هى عدة أحوال متقابلة يتقلب بينها حال الدنيا بين اليسر والعسر، والفقر والغنى، والخير والشر، والنعيم والشقاء، وغير ذلك من الأوصاف التى أمْلت على

(١) القصيدة نفسها، ص (٤٧٨) .
(٢) "ديوان ابن معصوم" – حققه: شاكر هادى شكر – ص (٤٧٩).

**الشاعر حالته النفسية وفجيعته في ولده أن يعَّدها سببًا لتمنِّى الموت والزهد فـــي الحياة.**

وفي الشعر الحديث رأينا كثيرًا من الشعراء يواجه آلام الفقد فتحدث في نفسه آثارًا تدوم، وجراحًا لا تكاد تندمل، وفى مقدمة هؤلاء " محمود سامى البارودى"(١)

حتى لتجد نفسه الملتاعة مصورة على كثير من صفحات ديوانه، ومن ذلك قوله في رثاء ولده "على"، يخاطبه(٢):

كيفَ طوتكَ المنونُ يا ولدِى؟ ∴ وكيفَ أودعتُك الثَّرى بيدِى؟
واكبدِى يا "على" بعدكَ لوْ ∴ كانت تبُلُّ الغليلَ واكبدى
ما كنتُ أدرِى إذا كنتُ أخشى عليْـ ∴ كَ العين أنَّ الحِمام بالرَّصَدِ
فاجأنِى الدَّهرُ فيكَ من حيثُ لا ∴ أعلمُ خَتْلاً، والدَّهرُ كالأسَدِ
فليبْكِ قلبِى عليكَ فالعينُ لا ∴ تبلُغ بالدمعِ رتبةَ الخلَدِ

بدا البارودى في مقدمة هذه الأبيات مستفهمًا ومتعجبًا، مشدوهًا ومكلومًا تغمر قلبه مأساة فقد ولده، فكأنه لا يصدق حرقة الوجد التى باتت فى قلبه، في وقت كان يخشى على ولده ما هو أقل وطأة من الموت فإذا بالموت يختطفه وكأنه أسد يتربص بفريسته على ما يفيده التشبيه من بث النبض وبناء الصورة.

ثم يطلب الشاعر إلى قلبه البكاء على حبيبه الرَّاحل، فحزن العين – وقد بدا في إرسالها الدمع– لا يكفى في التعبير عما تكنه نفسه من اللوعة والأسى.

وفى موضع آخر يشارك البارودى سابقيه في معنى الألم والحزن الذى لا يكافىء الرزء، وكذلك في الرد على لائميه(٣):

بكيتُ عليَّا إذ مضى لسبيلِهِ ∴ بعينٍ تكادُ الروحُ فى دمعِها تجرِى
وإنى لأدرِى أنَّ حزنى لا يفى ∴ بُرزئِى ولكنْ لا سبيلَ إلى الصَّبْرِ

(١) محمود سامى البارودى (١٢٥٥-١٣٢٢هـ/ ١٨٣٩-١٩٠٤م)، أول ناهض بالشعر العربى من كبوته في عصرنا، وأحد القادة الشجعان، جركسى الأصل، نسبته إلى إيتاى البارود بـ "مصر"، وكانت لأحد أجداده في عهد الإلتزام، ومولده ووفاته بالقاهرة. ["الأعلام" – خير الدين الزركلى – (١٧١/٧) – ط: دار العلم للملايين – الخامسة عشرة– مايو ٢٠٠٢م]

(٢) "ديوان البارودى"– محمود سامى البارودى باشا – ضبطه وصححه:على الجارم بك، ومحمد شفيق معروف – (ج١ ص ٢٠٢) – ط: دار العودة – ١٩٩٨م، والأبيات من بحر البسيط.

(٣) المرجع السابق ص (٩٦)، والأبيات من بحر الطويل.

وكيــفَ أذودُ القلــبَ عــن حســرَاتِه ∴ وأهــوَنَ مــا ألقــاهُ يصــدَعُ فــى الصَّــخْرِ؟
يلومــونَنى أنــىِّ تجــاوزتُ فــى البُكَــا ∴ وهل لامرىءٍ لم يبكِ فى الحـزنِ مـن عـذرِ؟

يرى الشاعر مصيبته بفقد ابنه أعظم مما بلغت نفسه حزنًا عليه، فهو يــرد على لائميه بأنَّ حزنه مهما اشتد لا يفى بجلال الخطب وهول المصــاب الــذى – لشدته– يفتت الحجر، ويشقُّ الصخر، ورغم أنَّ علمه بهذه الحقيقة جدير بحملــه على التجلد والصبر إلا أنه لا يستطيع إليهما سبيلاً.

وممن شغل التعبير عن آلام الفقد والحزن حيزًا واسعًا في شعره: الشــاعر الشيخ ضياء الدين رجب[1] الذى ترك في نفسه فقدان ابنه "حمزة" حزنًا عميقًــا، وذكرى أليمة لا تفارق خياله[2].

وقد رثاه بعدة قصائد ومقطعات جاء فيها قوله[3]:

مــا حيلــةُ المــرءِ إن مــدَّ الزمــانُ يــدًا ∴ إلى الأحبَّــة هــل عتــب علــى الــزمنِ؟
قد كنت تـوأمَ نفسى كـم فرحـتَ لَهَـا ∴ وكـمْ حَزِنْـتَ علـى مَـا مـسَّ مـن حَـزَنِ
أمنيــةً طــاب فــى نفســى تنقلُهــا ∴ ومهجــةً لى فــى حِلِّــى وفــى ظعنــى
إن ســرتُ يَشـملُنى مـن ضـوئِها قـبسٌ ∴ أو اســتقمتُ حَلَــا فــى فيْئِهَــا َسـكَنِى

حُقَّ للشاعر المتألم فبقدر ما يكون الحب يكون عند الفقد الألم والحزن.

قد بدا ما أفادته معانى الطباق والتقابل بين كلمات "فرحت وحزنت"، و "الحل والظعن"، و"الضوء والفىء" من بيان اختلاف حالَى الشاعر قبل فقده ابنه، وبعــد أن دهته هذه المصيبة، ولعل معنى التقابل هنا نجح في توليد الإحساس باتســاع

(١) ضياء الدين رجب ( ١٣٣٠-١٣٩٦هـ/ ١٩١١-١٩٧٦م)، شاعر، مؤرخ، قاض، مستشار شرعى، ولد في المدينة المنورة، درس في المدارس الأميرية وفى المسجد النبوى، اشترك في تحرير صحيفة المدينة، وساهم بشعره وبحوثه ودراسته العلمية والأدبية في الصحف المحلية، وتوفى بالرياض .["معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى ســنة ٢٠٠٢م"– كامــل ســلمان الجبورى – (٢٢٧/٣) – ط: دار الكتب العلمية– بيروت – الأولى ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ].
(٢) ينظر:["ديوان الشيخ ضياء الدين رجب" – تحقيق: هاشم دفتــردار المــدنى– ص(١٩)– ط: نادى جده الأدبى ١٩٨٠م– ١٤٠٠هــ ].
(٣) المرجع السابق ص (٤٢٤)، والأبيات من بحر البسيط.

الهوة وتعميق الفارق بين الحالين ومن ثم جعلنا نشعر كأن ثُقلاً قد سقط من شاهق واستقر على الأرض!.

يبدو أنَّ ذكرى الحبيب الرَّاحل لم تفارقْ خيال والده الثاكل، فراح يَرْثَى له في كل مناسبة تحل، ففى رمضان يكتب تحت عنوان " أول رمضان بعدك يا حمزة"(١):

وأهلَّ شهر كنت أوَّل فرحةٍ ∴ فيه تطالِعُنى فغبتَ على المَدى

يا فرحَة الرَّمَضَان يا ابن حَشَاشَتِى ∴ يا حمزَتى أنْتَ الرِّضَا أنتَ الفِدَى

ويجىء يوم العيد فيقولُ(٢):

يا حمزُ هذا العيدُ أولُ مرةٍ أحياهُ بُؤْسًا

قد كنت لى قمرًا يضىءُ وكنتَ لى يا حمزُ شمسًا

إنِّى أعيشُ الكونَ بعدك كُلَّهُ يا حمزُ رَمْسًا

وفى يوم عرفة يأخذه الحنين فينادى ولده الراحل(٣):

يا أنتَ يا سرُّ نفسى بل وجوهرُها ∴ ويا رضائِى ويا ذاتِى وأخلاقِى

اليوم حيث أفاضَ النَّاسُ وازدلفوا ∴ أحسُّ خطوَكَ حوْلِى خطْوَ مشتاقِ

وفى العام الثانى تُهَيِّجُهُ الذكرى فيناديه(٤):

يا قرة العينِ هذا حجُّنا الثَّانِى ∴ وأنتَ ناءٍ وفى أحشائِنَا دانِى

كأنَّما الدَّهرُ قد عشناهُ فى حُرَق ∴ وَمَا مَضَى يا حبيبَ القلبِ عامانِ

بدا كيف نالت آلام الفقد من الشاعر- الشيخ ضياء الدين رجب – ونال تصويرُها حظًا وافرًا من شعره.

(١) ينظر:"ديوان الشيخ ضياء الدين رجب" – تحقيق: هاشم دفتر دار المدنى ص (٤٢٨)، والأبيات من بحر الكامل.
(٢) المرجع السابق ص (٤٢٩)، والأبيات من بحر الكامل.
(٣) المرجع السابق ص (٤٣١)، والأبيات من بحر البسيط.
(٤) المرجع السابق ص (٤٢٩)، والأبيات من بحر البسيط.

وتبقى آلام فقد الأبناء بين الآلام هى الأكثر تأثيرًا في نفوس الشعراء حين يرسل الشاعر نفسه المتألمة على طبيعتها لتبكى وتنطق بلوعته وأساه، ومن ثم قد تُكسِبُه عطف المتلقى إلى حد مشاركته الأديب هذه الآلام.

وإذا كانت عاطفة البنوة أفاضت على الآباء الأدباء بحيث توحى بروائع الأدب والفن، فلا شك أنَّها في خطاب المرأة الأدبى إلى أبنائها تكون حشدًا حاشدًا وبحرًا زاخرًا لا آخر له، فالأديبة هنا أمٌّ لا يسعها – في هذا الخطاب – إلا أنْ تذكر مثلاً ما عانته في شهور الحمل وأطواره، ثم ما كابدته من عذاب الوضع، ثم آلاف الصور التى قد تحصل في ذهنها مذ كان طفلها وليدًا إلى أن يشب عن الطوق، وعلى ذلك كان لها من غذاء عاطفة البنوة النصيب الأوفى.

وإذا كان هذا هو نصيب الأمهات من الخطاب الأدبى إلى فلذات الأكباد وهم أمام عيونهن ينعمون بالحياة ويضفون على المشاعر البهجة والسرور، فكيف يكون نصيبهن حين يضاف إلى هذه الصور صورًا أخرى تبعث على الحزن وتمد المشاعر بالألم والحسرة، لا سيما وأنَّ طبيعة المرأة تجعلها دائمًا الأكثر انفعالاً، وشعورًا بالآلام واستعدادًا للأنين.

ولا أكثر دلالة على ذلك من تلك الآلام التى صورتها قديمًا "السلكة أم السليك"[1] في رثاء ابنها الذى خرج ولم يعدْ[2]:

طافَ يبغِى نجوةً ∴ من هلاكٍ فَهَلَكْ
أمريض لم تعدْ ∴ أم عدو قَتَلَكْ؟
والمنايا رُصَّد ∴ للفتى حيثُ سَلَكْ
أى شئٍ حسن ∴ لِفَتى لمْ يكُ لَكْ
كلُّ شئٍ قاتل ∴ حيثُ تلقى أَجَلَكْ

(١) السلكة أم السليك: شاعرة جاهلية، من شعراء الحماسة، كان ابنها السليك فاتكًا، من شياطين الجاهلية، وهو من الشعراء الصعاليك، قُتل فرثته أمه بأبيات من الشعر. [معجم تراجم الشعراء الكبير – تحقيق: د/ يحى مراد – ص (٢١٨)].

(٢) "ديوان الحماسة"– لأبى تمام– تحقيق:د/ عبد المنعم أحمد صالح– ج٢ص (١٩٢)–ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة – الأولى ١٩٩٦م، والأبيات من بحر الرمل.

فهى أم تتألم لفراق ولدها – الذى لم تغادره صفة طيبة كانت لغيره– وقد غلب على إحساسها موته، وإذا كانت لا تعرف كيف اختطفه الموت، لكنها متيقنة من ترصده له وتعدد الأسباب حين ينتهى الأجل.

ولعل من أسباب ذيوع هذا النص اختلاف بعض نقاد الأدب الحديث عليه، حيث يرى الدكتور/ محمد غنيمى هلال، وبعض النقاد عدم وجود روابط فكرية فيه، ومن ثم عدم تَمثُّل الوحدة العضوية بين أبياته، بينما يرى تمثُّلها آخرون لأنَّ الشاعرة تقدر جانبًا من الحياة تشعر به في داخلها(١)، وربما تقتضى النصفة القول: أنَّه إذا لم يكن لهذا النص سوى تصويره لآلام أم فقدت ابنها لكفاه.

وفى العصر الحديث يرى بعض النقاد "أنَّ الأديبات الأوليات أصابتهن أزمة نفسية حادة إثر خروجهن من الظلام الطويل ومواجهة الأضواء لأول مرة!، فانطبع الأدب النسوى بطابع الحزن والحرمان"(٢) حتى لتقول عائشة التيمورية(٣): التيمورية(٣):

إنى ألفت الحزن حتى إننى ∴ لو غاب منى ساءنى التأخير(٤)

غير أنَّ أكثر آلامها وأحزانها تلك التى بثتها في رثائها ابنتها" توحيد" في قصيدة بلغت فيها بالحزن مداه، والإنفعال ذراه، وقد بدأتها بقولها(٥):

طافتْ بشهرِ الصَّومِ كاساتُ الرَّدَى ∴ سَحرًا وأكوابُ الدُّموعِ تدورُ

فَتَنَاوَلتْ منها ابنتِى فتغيَّرت ∴ وجنات خدٍّ شأنها التغييرُ

(١) ينظر: "رثاء الأبناء في الشعر العربى" – د/ مخيمر صالح موسى – ص (٩٣)– ط: مكتبة المنار بالأردن – الأولى – دون تاريخ.

(٢) مقال بعنوان" الأديبات العربيات في العصر الحديث" – محمود عبد الشافى القوصى – مجلة مجلة العربى – ص ٨٦– عدد ٦٥٦– مارس ٢٠١٢م.

(٣) عائشة التيمورية:( ١٢٥٦–١٣٢٠هـ/ ١٨٤٠– ١٩٠٢م): عائشة عصمت بنت إسماعيل (باشا) بن محمد كاشف تيمور، شاعرة، أديبة، من نوابغ مصر، كانت تنظم الشعر بالعربية والتركية والفارسية، مولدها ووفاتها في القاهرة، وهى شقيقة أحمد تيمور باشا. [الأعلام ٢٤٠/٣].

(٤) "ديوان حلية الطراز" – عائشة التيمورية – ص (٨٩) – ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م، والبيت من بحر الرجز.

(٥) المرجع السابق ص (٩٣)، والقصيدة من بحر الكامل.

جـاء الطبيـبُ ضـحىً وَبَشَّـر بالشِّـفا ∴ إن الطبيـــبَ بطبـــه مغـــرورُ

**ثم هى تصور حوارًا بينها وبين ابنتها الراحلة، تقول[١]:**

لَّـا رأتْ يـأسَ الطبيـبِ وعجـزه ∴ قالـت ودمـعُ المقلـتين غزيـرُ
أُمَّـاهُ قـد عـز اللقـاءُ وفـى غـدٍ ∴ سـترينَ نعشِـى كـالعروسِ يسـيرُ
وسـينتهِى المسْـعَى إلى اللَّحـد الـذى ∴ هـو منزلِـى ولـه الجمـوعُ تصـيرُ
قـولى لـربِّ اللَّحـدِ رفقًـا بـابنتِى ∴ جـاءت عروسًـا سـاقَهَا التقـديرُ
وتجلَّـدى بـإزاء لحـدِى برهـةً ∴ فـتراكِ روح راعَهَـا المقـدورُ
فأَجَبْتُهَـا والـدَّمعُ يحـبس منطِقـى ∴ والـدَّهرُ مـن بعـد الجـوارِ يجـورُ
بنتـاهُ يـا كبـدى ولوعـةَ مُهْجتـى ∴ قـد زال صـفو شـانَهُ التكـديرُ
لا توصِـى ثَكْلَـى قـد أذَابَ وتينُهـا[٢] ∴ حـزن عليـكِ وحسـرة وزفـيرُ

**إنها صورة لقلب مكلوم وأمومة ملهوفة، تصور الشاعرة فيها عجز الطب ويأس الطبيب، وقبر عروس شابة وقبر نفس أمها حزنًا عليها، أما استلهام الأم روح ابنتها، وأسلوب الحوار فلا شك أن ازداد به المدى النفسى عمقًا وتأثيرًا.**

**كما شعرنا بتلك الآلام التى غمرت قلب الشاعرة جليلة رضا[٣] وطفت على سطح قصائدها، وقد كتبتها تبث فيها شعورها نحو ابنها المصاب بالجنون، وحين فقدته رثته بعدة قصائد تحكى لوعتها وحرقة وجدها، وجاء فيها قولها[٤]:**

كـلُّ شـىءٍ فـى قـوانينى اختُصِـرْ ∴ فـرُغ العـالمُ مـن كـلِّ البشـرْ

---

(١) القصيدة نفسها.

(٢) وتينها:الوتين عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.[لسان العرب –مادة وتن –١٣/٤٤١].

(٣) جليلة رضا: جليلة محمد فؤاد رضا، ولدت بالأسكندرية عام ١٩٢٠م، حصلت على الثانوية العامة الفرنسية، وتزوجت وهى صغيرة من قاض يعمل بالصعيد وأنجبت طفلين أصيب أحدهما بمرض عقلى، كما ترملت وهى صغيرة، أهم حدثين في حياتها الشعرية تعرفها بالشاعرين إبراهيم ناجى، ومحمد الأسمر، من دواوينها الشعرية :"اللحن الباكى"، و"االلحن الثائر"، و"الأجنحة البيضاء".[معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م –كامل سلمان الجبورى – (٢/٥١)].

(٤) "صفحات من حياتى" – جليلة رضا – ص (١٢٩)، ط: دار الهلال– ١٩٨٦م، والقصيدة من بحر الرمل.

لم يعــدْ فــى الكــونِ غــيرِى وأنَــا ∴ أتلظَّـــى فـــى حريـــقِ مُسْـــتَعِرْ

تشعر وكأن وفاة ابنها نهاية العالم الذى فرغ من كل البشر ولم يتبق فيه غيرها محترقة القلب والجوانح، ثم هى تقف على قبر الحبيب الرَّاحل تقول[١]:

أَنَــا أَحيَــا هُنَــا وهيهــاتَ أحْيَــا ∴ إنَّ كُلِّـــى لَـــدَيْكَ..كُلِّى وأكثَـــرْ

ذلــك الــدودُ يــا بنَــىَّ أَكُــول ∴ إنَّـــه الآن فـــى عظـــامِى يَنْخُـــرْ

أىُّ أمٍّ تعـــيشُ بعـــدَ بنيهـــا ∴ وتـــرى بَهْجَـــةَ الحيـــاةِ وَتَشْـــعُرْ؟

بدا أن الشاعرة أيضًا تشارك سابقيها في وصف معانى الوقوف على قبر ابنها وتمنى الموت لحاقًا به، فليس في الدنيا بعد ابنها ما من أجله يطيب البقاء، على ما في معنى الاستفهام من إنكار الأديبة لوجود أم ترى بعد فقد ابنها بهجة للحياة.

ثم هى تخاطبه[٢]:

لِـــمَ حطَّمْـــتَ يـــا بنـــى قيـــودِى ∴ لِـــمَ آثَـــرْتَ أنْ تزيـــلَ هَـــوَانِى؟

يبدو أن كان ولدها في حياته ومرضه قيدًا يربطها بالحركة، وإذا كان من حرية بعد فقده فماذا تفعل بها؟، فهى تتمنى أن يعود ابنها إلى الدنيا ولو كان في ذلك عودة لقيدها.

ولعل في النماذج السابقة ردًّا على بعض النقاد الذين يرون قصورًا للمرأة في التعبير عن مشاعرها تجاه المصيبة وصياغة تجربتها الفنية، ويرون "أنَّ النساء يفتأن حزنهن بالدموع الغزار الحرار، وبالآهات والأنات والعويل، وبالصمت الحزين والاستغراق الأليم والذكرى الموجعة، فإذا عمدن إلى الأدب منحن من عاطفة قد تنفست وأوين إلى لغة كأن البكاء والنشيج والدمع السخيم أطوع منها وأصدق تعبيرًا"[٣]، وكأن النساء في ذلك يستنفذن طاقتهن في الدموع والنحيب، فلا يوجهن إلا قدرًا يسيرًا من العاطفة نحو التجربة الفنية.

---

(١) المرجع نفسه ص (١٣٠)، والأبيات من بحر الخفيف.
(٢) المرجع نفسه ص (١٣٠).
(٣) "المرأة في الشعر الجاهلى" – د/ أحمد الحوفى – ص (٤٨٨) – ط: مكتبة نهضة مصر بالفجالة–١٩٥٤م.

وليس بمعزل عن الشعر يأتى النثر الأدبى "حين يخرج الكلام عن مجرد التخاطب في شؤون الحياة العادية بوحى البداهة والإرتجال إلى الرغبة في التعبير الأدبى المتأنق الأجدر بالوصف والأقرب إلى الإقناع وقوة التأثير"(١) والإرتفاع بالكلام إلى ألوان من الخيال والتصوير فهذا هو النثر الأدبى صاحب الأثر الوافر في نفوس المتلقين.

ومن بديع النثر في الخطاب الأدبى إلى الأبناء وتصوير آلام الفقد ما جاء عن النبى -ﷺ- في فقد ابنه "إبراهيم" حين أخذه من حِجْر أمِّه فوضعه في حجره -ﷺ- ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت، وقال بصوت متهدج وفؤاد متألم واستسلام مطمئن(٢):" إنا يا إبراهيمُ لا نُغنى عنكَ من الله شيئًا، إنَّ العينَ لتدمعُ، وإنَّ القلبَ ليجزعُ، وإنَّا بعدك يا إبراهيمُ لمحزونون، أما والله لولا أنَّه أمر حق ووعد صدق وأنَّ آخرنا سيلحقُ أولنَا لحزنَّا عليك بأشدِّ مِنْ هذا!" .

ويتألم الصحابة – رضى الله عنهم- لألم الرسول -ﷺ- وينال منهم حزنه، فيذكرونه بما نهى عنه، فيقول: -ﷺ-: (٣)"ما عن الحزن نهيتُ، وإنمَّا عن العويل، وإنَّ ما ترونَ بى أثرَ ما فى القلبِ من محبَّةٍ ورحمةٍ، ومن لم يبدِ الرَّحمة لا يبدى غيرهُ عليه الرَّحمة".

ولأنَّ حزن الرسول -ﷺ- لا يكون إلا بمقدار ما فيه من طبيعة الإنسان سرعان ما تمالك -ﷺ- نفسه، وصلى على ولده، وسوَّى عليه القبر بيده الشريفة، ثم رش فوقه الماء وأعلم عليه علامة وقال(٤):{ إنَّها لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولكنَّها تقرُّ عين الحىِّ، وإنَّ العبدَ إذا عَمِلَ عملاً أحبَّ اللهُ أنْ يُتْقِنَه}.

---

(١) "تاريخ الأدب في العصر الجاهلى" – د/ أحمد أحمد منصور نفادى – ص (١٤٨)- ط: مركز الكتاب – كلية اللغة العربية بأسيوط ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: "السيرة الحلبية" – على برهان الدين الحلبى – باب ذكر أولاده -ﷺ- شبكة المعلومات الدولية موقع/ wikisousce.org

(٣) الحديث بغير نصه في البخارى – جـ١ – صـ ٢٦٦ – ط: إحياء الكتب العربية – القاهرة – دون تاريخ.

(٤) ينظر المرجع السابق.

**أما النثر الحديث فمن بديعه فى هذا الغرض ما جاء فى رثاء "أحمد حسن الزيات"[1] لابنه وقرَّة عينه "رجاء" الذى توفى في سن الطفولة، فريع والْتاعت نفسه وراح ينفث عن لوعته بما يكتب من رثاء.**

(١) أحمد حسن الزيات: ولد في الثانى من أبريل عام ١٨٨٥م بمركز طلخا بالدقهلية، حصل على ليسانس الحقوق من فرنسا، وعمل في الصحافة، ومن أهم أعماله مجلة "الرسالة" التى كان ينتظرها العالم العربى كله، ولقب بأمير النثر العربى، توفى عام ١٩٦٨م. ينظر:[ "قمم أدبية" – د/ نعمات أحمد فؤد – ص (١٧٧)، وما بعدها –طبعة: عالم الكتب ١٩٨٥م].

ومن هذه العبرات تلك التى بدأها بالنداء[١]:« يا قارئى أنت صديقى فدعنى أُرق على يديكَ هذه العبرات الباقية! .. هذا ولدى كما ترى، رُزقْتُه على حال عابسةٍ كاليأس، وكهولةٍ يائسةٍ كالهرم، وحياةٍ باردةٍ كالموت، فأشرق في نفسى إشراقَ الأمل، وأورقَ في عُودِى إيراقَ الرَّبيع، وولد في حياتى العميقة معانى الجدةِ والاستمرار...» .

يشرح الزيات لقارئه كيف كانت سعادته بذلك الابن الذى رزقه على طول انتظار، وكيف شغل فراغه وملأ وجوده وأشعَّ الطلاقة في وجهه والفرحة في قلبه، وغمر بالرضا نفسه، على ما أفادته كثرة التشبيهات في النص من تجسيد يبعث في الصورة نبضًا ويشع فيها حياة.

ثم يذكر الزيات أن هناءه بابنه لم يستمر طويلاً فما انقضت سنوات أربع إلا « وأوحشَ القفرُ، وانطفأتِ الومضةُ وأعطشَ اللَّيل وتبدَّد الحلمُ، وتجهَّم الواقعُ، وأخفقَ الطبُّ، وماتَ " رجاء" ...»[٢] .

ثم ينتقل إلى تصوير ما تحمل نفسه من ألم، يقول[٣]: « إنَّ قلبى ينزفُ من عينى عبراتٍ بعضها صامتٌ وبعضها معولٌ!، فهل لبيان الدَّمع ترجمان؟ ولعويل الثَّاكِلِ ألحانٌ؟، إنَّ مَنْ يعرفُ حالى قبلَ "رجاء" وحالى معهُ يعرفُ حالى بعدَهُ! .. والهفَ نفسى عليهِ يوم أخذته غصَّة الموتِ، وأدركتهُ شهقةُ الرُّوح، فصاحَ بملءِ فمهِ الجميل: "بابا" كأنَّما ظنَّ أباهُ يدفعُ عنه ما لا يدفعُ عن نفسِهِ! ...».

وقد تداعى لآلام الزيات كثير من الأدباء في مقدمتهم أحمد أمين[٤]، الذى تألم لآلام صاحبه فكتب إليه يعزيه[٥]: «وارحمتاه لكَ، لقد كان رجاءُ قِبلةَ رجائِك،

(١) " وحى الرسالة" – أحمد حسن الزيات – ج١ ص (ج) – ط: دار نهضة مصر – بالفجالة – الثانية – دون تاريخ.
(٢) "وحى الرسالة " – أحمد حسن الزيات – ج١ ص (د).
(٣) المرجع السابق – ج١ ص (عـ).
(٤) أحمد أمين (١٢٩٥-١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨-١٩٥٤م): ابن الشيخ إبراهيم الطباخ: عالم بالأدب، غزير الإطلاع على التاريخ، من كبار الكتاب، وعمل قاضيًا وأستاذًا، ومولده ووفاته بالقاهرة، وهو من أكثر كتاب مصر تصنيفًا وإفاضة، ومن تأليفه "فيض الخاطر"، و "فجر الإسلام"، و "ضحى الإسلام"، و"إلى ولدى" . [الأعلام ١٠١/١].
(٥) "فيض الخاطر"– جـ١ ص (١٧٩) – ط: مكتبة النهضة المصرية– الثالثة – ١٩٤٦م.

ومعقدَ آمالك، وحديثَ أحلامك، وملءَ سمعِكَ وبصركَ، فشوفتُه حياتُك، وترقيتُـهُ مطمعُ شبابك، حتى جاد بهِ الزمانُ البخيلُ، فربطتَ أسبابك بأسبابه، وتعلَّقْتَ فـي أهدابه، فلما شمت مخايلَهُ، ورقبتَ منه النُّجحَ عدا عليه الـدهرُ الـذى لا يرعـى ميثاقًا، ولا يثبتُ على عهده، فأخلَفَ ظنَّك، ونقض أملَكَ، فإذا الدنيا أضغاثُ أحـلامٍ ووساوسُ أطماع... » .

رعا "أحمد أمين" أن المحزون قد ينفر ممن يعزيه، ويسكن إلى مـن يتـألم معه؛ لأنه يكبر فجيعته ويجلّ مصيبته، فهو في هذه الرسالة يباكيه ويتباكى معـه على أمله الفائت وعزيزه الراحل.

لكن النَّصَفَةَ تقتضى القول إنَّ الحقيقة هى أُسُّ التجربة، وفرق كبير بـين أديب اكتوى بألم موت ابنه، فَتَنـزَّى الألم من لسانه أدبًا، وآخر لم يعان الحـدث فرثا ابنًا لغيره، وكما قيل: "ليست النائحة الثكلى مثـل النائحـة المسـتأجرة"(١)، وقديمًا قال أرسطو :"والحق إن أقدر الناس تعبيرًا عن الشقاء: من كان الشقاء في نفسه"(٢).

ولعل أكثر ما يميز هذا النص من جهة الفن – ما التزمه كثيرًا أسلوب أحمد أمين من "سجع وازدواج"، حيث التأليف بين الكلمات والمجانسة بين الفواصـل، وما في ذلك من دلالة على الصنعة المحكمة التى تمنح النص جمالاً حين يحسـن استخدامها، ورغم أنَّ بعض الفقر في هذا النص قد طالت وبعضها تساوت إلا أنَّ السجع والازدواج بدا واضحًا، كما بدت رشاقة الألفاظ وخدمته للمعانى، ومن ثـم جاء السجع حلية ظاهرة خلت من التكلف.

وممن تجرع الآم الفقد، وصور في صدق جزعه وفزعه، فجـاءت عباراتـه مفعمة بالأسى والحسرة: الشيخ "عبد العزيز البشرى"(٣) في رثائه لولـده تحـت

(١) "العقد الفريد" –لابن عبد ربه – شرح وضبط: أحمد أمين وآخرين –جـ٣ ص (٢٢٨) – ط: لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٦٩م.

(٢) "فن الشعر" لأرسطو طاليس – ترجمة أحمد عبد الـرحمن بـدوى – ص (٤٨) – ط: دار الثقافة بيروت – ١٩٧٣م.

(٣) عبدالعزيز البشرى (١٣٠٤-١٣٦٢هـ/ ١٨٨٦-١٩٤٣م)، أديب مصـرى، مـن الكتـاب المترسلين، مولده ووفاته بالقاهرة، كان مرحًا طروبًا، حلو العشرة، شريف النفس، نظم الشعر

عنوان " النظرة الأخيرة"، يقول[١]: « هذا ولدى .. يحمله حامله، ويخرج به من دارى إلى غير عودة أبدًا، وإنِّى لأتحامل وأجمعُ جسدِى المحطَّم، وأجرُّ ساقىَّ المتزايلتين جرًّا، لأشيع إلى الباب ولدى، بل لأشيع نفسى، وإنِّى لأتزود منه النظرة الأخيرة، فإذا بى أحس أنَّ كبدى وقلبى يسيلان كلاهما على عينى، فما بقيت منهما بعد هذا بقية فكالإسفنجة بعد شدة الإعتصار...» .

بدا الأديب في هذا النص مثقلاً برزئه الذى بدَّد قواه وطحن نفسه، فجاءت عباراته تصويرية تدمى القلوب وتصهر النفوس حزنًا وأسى بما تجسده من مآسى وفجائع.

وكذلك رثا مصطفى لطفى المنفلوطى[٢] ولده بل أولاده فلذات أكبادة بأحر ما يكون الرثاء، ومن ذلك ما جاء تحت عنوان :" الدفين الصغير"، قوله[٣]: «دفنتكَ اليوم يا بنى، ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكما أخويكما، فيالله لقلب لاقى فوق ما تُلاقى القلوب، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب، لماذا ذهبتم يا بنى بعد ما جئتم؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟ لولا مجيئكم ما أسفت لخلو يدى منكم، لأننى ما تعودت أن تمتد عينى إلى ما ليس في يدى، ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم».

هى ليست مأساة واحدة وإنَّما مآسى عاتية، فقدان بعد فقدان، وآلام وراء آلام صادَفَتْ في الأديب رقة قلب ورهافة حس فزلزلت اتزانه وأفقدته صوابه فانطلق لسانه بما يشبه الهزيان.

---

في شبابه، ثم عدل عنه إلى النثر، من كتبه "المرأة"، و"المختار"، و"قطوف" .[معجم تراجم الشعراء الكبير– د/ يحى مراد – ص (٥٠٢)].

(١) "المختار" – عبد العزيز البشرى – ج١ ص (٣٣٤) – ط: دار المعارف مصر– دون تاريخ.

(٢) مصطفى لطفى المنفلوطى :( ١٢٨٩-١٣٤٣هـ/ ١٨٧٢-١٩٢٤م): نابغة في الإنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقى في مقالاته وكتبه، له شعر جيد فيه رقة وعذوبة، ولد في "منفلوط" وتعلم في الأزهر، ابتدأت شهرته تعلو منذ سنة ١٩٠٧م، بما كان= =ينشره في جريدة "المؤيد" من المقالات الأسبوعية، له من الكتب "النظرات"، و"العبرات". [معجم تراجم الشعراء الكبير – د/ يحيى مراد – ص (٦٧٩)].

(٣) "النظرات" – مصطفى لطفى المنفلوطى– ج١ ص(٥٥) – ط: دار الثقافة – بيروت – دون تاريخ.

كما رثت الشاعرة "جليلة رضا" ابنها بعدة قصائد، رثته بقطع نثرية جاء فيها قولها تبث آلام الفقد والوحدة[1]: « وحدى في الصَّالة الرَّهيبة أتساءلُ: لماذا تركنى الله أعيشُ حتى أرى موتَ ابنى؟، أهناكَ شىء لم يزلْ في الغيب على انتظار؟، أهناك كلمات باقية لم تزلْ خرساء قابعة في زوايا الفكر ترقبُ التحررَ والانطلاق؟، إنَّنى أمسكُ بالقلم فيحمرُّ المداد، وتغيمُ العينان، ويشيبُ القلب، كان ولدى هو الحياةُ والتحدى والأملُ والعملُ، والآن لا شىء.. خواء في قلبى وفى عينى، وأخشى أنْ يصيبَ الروحَ هذا الخواء...» .

هى مشاعر أم وكفى، وقلب مكلوم لا يفرق بين ابن سليم العقل أومعتل، فهى لا تذكر آفته حين تشعر بالألم بعد فقده، وإنَّما قد تذكره جنينًا في الحشا يخفق له القلب، وتضىء له الروح، ورضيعًا ينمو من جسدها، وأملاً يربطها بالحياة، ومن ثم تشعر بنهاية حياتها بعد وفاته، بل هى مشاعر آباء أدباء رزئوا في أبنائهم وسطرت أقلامهم ما أملته قلوبهم الموجعة ونفوسهم الدامية، فبدا جليًا في أدبهم ما لهذه الآلام من تأثير.

❋ ❋ ❋

(١) "صفحات من خيالى" – جليلة رضا – ص (١٢٩).

# المبحث الثانى
# فى الصبر والعزاء

تعدُّ معاني الصبر والعزاء من أكثر معانى الألم في الخطاب الأدبى إلى الأبناء، حيث دعوة الأدباء المتألمين إلى التفكر في الموت، وأنَّ الدنيا دار فناء تتعدَّد ألوانها وتتَّحد حقيقتها، وعلى المتألم أنْ يسلِّى نفسه فيها ويضرب صفحًا عن الدموع التى يسكبها، ويؤمن بالقضاء والقدر، ويهون على نفسه مصيبة فقد ابنه، ويلجأ إلى الله – عز وجل– كى يتولاه برحمته ويظله بالصبر والسلوان.

وقد يذكر الأديب الصبر والعزاء على أنَّه لهما قال وعنهما متحول، فهو يجزع جزعًا لا ينفذ فيه صبر، ولا يغنى معه عزاء، ومن ذلك قول ابن الرومى في رثاء ابنه هبة الله[1]:

أَبُنَـيَّ إنَّـكَ والعـزاءُ معًـا ∴ بـالأمسِ لُـفَّ عليكُمَـا كَفَـنُ
فـإذَا تَنَاولـتُ العـزاءَ أَبَـى ∴ نيْلِيـه أَنْ قـد ضـمَّهُ الجُـنَنُ

فابن الرومى يرى أنَّه فقد العزاء مع فقد ولده، وكما لا يعود الميت إلى الحياة فلا أمل في أنْ يتسرب الصبر إلى نفسه المتألمة.

ولعل ذلك أيضًا هو الإحساس الذى سيطر على البارودى في مصيبته في ولده فوجدناه يقول[2]:

وإنِّـى لأَدْرِى أنَّ حُزنِـى لا يَفِـى ∴ بُرزئِـى، ولكـن لا سـبيلَ إلى الصَّـبرِ
وكيـفَ أذودُ القلـبَ عـن حسـراتِه ∴ وأهـوَنُ مـا ألقـاهُ يصـدعُ فـى الصَّـخرِ

ولكن يبدو أن أدركه اللطف وشعر بالصبر والسلوان قبل أن ينهى قصيدته فراح يقول:

ومـا كنـتُ لـولا قِسْـمة اللهِ فـى الـوَرَى ∴ لأصـبرَ لكنَّـا إلى غايـةٍ نسـرِى
لقـد خفَّـفَ البلـوى– وإن هـى أشـرفتْ ∴ على النفس– ما أرجُـوه مـن موعِـدِ الحشْـرِ

(١) "ديوان ابن الرومى" – تحقيق: د/ حسين نصار– ج٦ ص (٢٥١٥) – مرجع سابق، والأبيات من بحر الكامل.
(٢) "ديوان البارودى" – ج١ ص (٩٦) – مرجع سابق، والأبيات من بحر الطويل .

ثم هو يبين أن تسلل الصبر إلى نفسه لم يكن نسيانًا لآلامه، وإنمَّا تكلَّفه عسى أنْ يخففَ عنه نار الفراق وحرقة الوجد، يقول:

لم أصطبرْ بعدك من سلوةٍ ∴ لكن تصبَّرْتُ على جمرِ
وشيمةُ العاقلِ في زرئِهِ ∴ أن يسبقَ السلوةَ بالصَّبْرِ

إلى أن تمكن العزاء من نفس البارودى وتسلَّى في مصيبته فراح في قصيدة أخرى يذكر الصبر خلقًا كريمًا ومحمدة لصاحبه، يقول[1]:

صبرتُ، وما بالصَّبرِ عارٌ على الفتى ∴ إذا لم يكنْ فيه معابٌ ولا نكرُ
ولو لم يكنْ في الصَّبر أعدلُ شاهدٍ ∴ على كرمِ الأخلاقِ ما حُمد الصبرُ

ومن جهة الفن أكثر ما يبدو في هذه الأبيات تكرار الاستدراك بـ "لكن" في أسلوب البارودى، على ما في معنى "الاستدراك" من تلاحق المعانى وتتابعها، وربما كان لذلك أيضًا دلالته على بعض اضطراب في نفس الشاعر المتألمة إثر مصيبته في لده.

ومن ظواهر البناء اللغوى يأتى في هذه الأبيات: "التتميم"[2] في الاعتراض بقوله " وإنْ هى أشرفت على النفس" ليزيد معنى شدة البلوى وشدة آلام الشاعر تقوية وتوكيدًا، وكأنَّ الشاعر لا يدع شيئًا يؤكد معنى الألم إلا أورده.

وقد يبدأ الشاعر تصوير مصيبته وهو عن العزاء منصرف، وربما للصبر كاره ثم يدركه اللطف فيشعر بالصبر والسلوان، ومن ذلك ما جاء في رثاء ابن معصوم لابنه، يقول[3]:

إنِّى ليملُكنى التَّأَسُّفُ والأسَى ∴ فيعزُّ من نفسى عليكَ عزَاهَا
فإذا ذكرتُ فناءَ دنيانَا الَّتى ∴ لا لفظُها يَبْقَى ولا معنَاهَا
خفَّ الأَسَى عنِّى وهانَ علىَّ ما ∴ ألقاهُ من أهوالها وبلاهَا

(١) "ديوان البارودى" – محمود سامى البارودى – ج٢ ص (٩٧)، والأبيات من بحر الطويل.
(٢) هو أن يأتى الشاعر بلفظة أو تركيب يتم به الوزن فيزداد المعنى اكتمالاً، ويرى ابن رشيق أنه الوجه الحسن للحشو. ينظر:[موسيقا الشعر العربى – د. حسنى عبد الجليل – جـ١ صـ(٢٠٩) – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م].
(٣) "ديوان ابن معصوم" – حققه: شاكر هادى شاكر – ص (٤٧٨)، والأبيات من بحر الكامل.

كيـــف البقـــاءُ بهـــذه الـــدَّارِ التـــى ∴ مَـــنْ قـــد بَنَاهَـــا للفنـــاءِ بَنَاهـــا؟
دار قَضَـــت أنْ لَـــا يـــدومَ نعيمُهـــا ∴ لا كـــــانَ مســـــكنُها ولا ســـــكنَاهَا

**لعل أكثر ما يدل على تصبر الشاعر وعزاء نفسه في مصيبته انتقاله في هذه الأبيات من غرض الرثاء إلى غرض الزهد والحكمة، فهو يذكر حقيقة الدنيا ومـــا يتصل بها من صفات التقلب والغرور والفناء، دار ليس فيها آلام فقد أو عناء.**

**أما من جهة الفن فقد بدت موسيقا هذه الأبيات فى ذراها، ولا شك أنَّ مـــردَّ ذلك إلى ما ينتج من موسيقا "التجنيس"(١) التى أوجـــدها الشـــاعر بـــين كلمـــات :"التأسف- - الأسى، ويعز- وعزاها، والفناء- والبقاء، ومسكنها- وســـكناها"، وموسيقا التكرار التى أوجدها بين كلمات :" الأسى، والفناء، وبناها، ودار"، فقـــد منحت الحروف المكررة والمتجانسة لهذه الكلمات إيقاعًا صوتيًا وجرسًا موسيقيًا أسهم في إنتاج الدلالة على الصبر والسلوان.**

**ويلحق بابن معصوم في المعانى السابقة: الشاعر الشيخ " ضياء الدين رجب" حيث تكلف الصبر وحامت نفسه حوله في أكثر من موضع من شعره- في رثـــاء ولده- إلى أنْ شعر بالصبر والعزاء فأفرد لهما القصائد والمقطعات، ومـــن ذلـــك قوله في مقطعة رباعية(٢):**

جـــاوزتُ فيـــكَ هَـــوَى نفسِـــى فأَثْقَلَهَـــا ∴ عـــبءُ النَّـــوى غـــير مرجـــوٍ ولا دَانـــى
وعنفـــوانُ الأسَـــى لا الصـــبرُ يحمـــدهُ ∴ إلا التجمُّـــل فـــى صـــمتٍ وكتمـــانِ
فاجعـــلِ الصـــبَر صَـــبْرَ الوجـــدِ مشـــتعِلاً ∴ مقـــرَّحَ الجفـــنِ لم يخضـــع لســـلوانِ
تعيشـــهُ الـــنفسُ ذِكـــرَى حـــالمٍ سَـــبَحَتْ ∴ أنفاسُـــهُ عَبْـــرَ ذاكَ العـــالمِ الثَّـــانِى

(١) سمى هذا النوع مجانسًا؛ لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد، وحقيقته أن يكون اللفظ واحدًا والمعنى مختلفًا . ينظر:[المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- ابن الأثير – ج١ ص (٢٦٢)، ط: دار نهضة مصر – القاهرة ١٩٧٣م].

(٢) "ديوان الشيخ ضياء الدين رجب" – تحقيق: هاشم دفتر دار المدنى – ص (٤٢٥)، والأبيات من بحر البسيط.

ففى هذه الأبيات لم يتصبر قلبه ولم تشعر نفسه بعزاء، وإذا كان من صبر ففى طول الوجد واشتعال الألم وتقرح الجفن من كثرة بكاء ذكرى الحبيب الراحل إلى الدار الآخرة.

لكن نفسه خالطت شيئًا من العزاء والصبر في ذكره مصاب النَّبى -ﷺ- في ولده "إبراهيم" ومن قبل عمه " حمزة"، يقول: في قصيدته " إلى روح ولدى "حمزة"[١]:

لَكَ يا حمزةُ النصيبُ المُعَلَّى ∴ بين نُعمى من الإله ورُحمى
إن بكَى حمزةَ أبا الشهداءِ ∴ الغرِّ طه خلاً وفيًا وعَمَّا
أو أسال الدموعَ فى فقدِ إبراهيمَ ∴ جَرْيًا فَقَدْ تَضَاحَكْتُ غَمَّا
رحمةً بالقلوبِ بالأهلِ أَجْدَى ∴ من عويلِ سَحٍّ بقلبٍ أصَمَّ

كما كان للشيخ "ضياء الدين رجب" في حفيدتيه – بنتى ولده الراحل- (حنين وأهداب) أهم مصادر العزاء والصبر، وفى ذلك يقول في رباعية أخرى[٢]:

أرى بعينيكَ يا غالِى وإنَّهما ∴ عيناىَ عبرَ (حنينى) عبر(أهدابِى)
هما الوشيجةُ لَمَّا أنْ رَمَى قَدَرٌ ∴ بسهمِهِ فتحدَّى كلَّ أسبابى
هما عزائِى فى أعقابِ داهيةٍ ∴ لم تُبْقِ غيرَ انكسارِى بين أحبابى
رُضْتُ الأسى كلَّهُ فى نظرةٍ لهُمَا ∴ فلا تُرَعْ، فجميلُ الصَّبْرِ أَوْلَى بى

ولعل التورية[٣] التى يقدمها الشاعر في البيت الأول هى أكثر ما يلحظ على الأبيات من فن، حيث ما أراده من معنى آخر بعيد لكلمتى " حنين – وأهداب" وهما اسمان لحفيدتيه، فضلاً عن معنيهما المراد من السياق ويرشحه ما يجاور الكلمتين من الفاظ، وغير خفى ما تفيده إرادة المعنيين: البعيد، والقريب من بلاغة الأسلوب وتمام المعنى، فبقدر ما يحس الشاعر من ألم الحنين والذكرى حين ينظر

(١) "ديوان الشيخ ضياء الدين رجب" – تص (٤١٨)، والأبيات من بحر الخفيف.
(٢) المرجع السابق ص (٤٢٣)، والأبيات من بحر البسيط.
(٣) التورية: أن يطلق لفظ له معنيان: أحدهما قريب غير مراد، والآخر بعيد مراد،ويدل عليه بقرينة يغلب أن تكون خفية لا يدركها إلا الفطن. ينظر:["جواهر البلاغة" – السيد أحمد الهاشمى – ص (٣١٠) – ط: دار الفكر – القاهرة ١٩٩٤م].

إلى حفيدتيه يشعر أيضًا بالعزاء والسلوان والصبر الجميل فهما جزء باق من الحبيب الذى مضى، ولا أدلَّ على ذلك من قوله في قصيدته " أول عام بعدك يا حمزة"(١):

قد أهلَّ العامُ الجديدُ علينَا ∴ يا حبيبي وأنْتَ تَسْكُنُ لحدَك
كيفَ أَحْيَا لولَا "حنين وأهداب" ∴ وأخَوَاتُك الوحائِدُ بَعْدَكْ؟

ولعل أهم ما قدمه الشاعر من مصادر الصبر والعزاء هو ذلك الشعور بالتسليم لقضاء الله – تعالى – وقدره، يقول في قصيدته "غياب"(٢):

أحاط بي الشباب فلم أجده ∴ حبيبَ القلب ما بينَ الشبابِ
سبقتَ وكان أكثر من يقيني ∴ بأنَّكَ حافظ عهدى غيابى
ولكن المشيئةَ فوقَ حُبِّي ∴ ومُنيةِ خاطرى وأسَى اغْترابِى
ورُحمى الله أعْلَى مِنْ وحيدٍ ∴ فَقَدْناه على غيرِ ارتقاب

الشاعر تهيجه الذكرى ويأخذه الحنين لا سيَّما حين يأتيه أقران ولده من الشباب فلا يجده بينهم، إذ سبقه وسبقهم إلى دار البقاء فجأة في وقت كان والده – كما الآباء– يرجوه ويتمناه وصلاً وامتدادًا وأثرًا باقيًا بعد الرحيل، لكن مشيئة الله – تعالى– وقدره فوق هذا الرجاء.

ومن الشعراء من اقترن صبره وعزاؤه بالتوجه إلى الله – تعالى – والتضرع والدعاء، ومن ذلك ما جاء في رثاء الشاعر أحمد سحنون(٣) لابنته "سعيدة" في قصيدته "تبًا لها دنيا"، يقول(٤):

---

(١) "ديوان الشيخ ضياء الدين رجب" – ص (٤٢٩)، والبيتان من بحر الخفيف. .
(٢) المرجع السابق ص (٤٣٠)، والأبيات من بحر الوافر.
(٣) "أحمد سحنون": شاعر جزائرى، ولد في قرية "ليسانة" عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، وقضى حياته في الجزائر وبها توفى عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، وهو شاعر متوقد العاطفة، متعدد في معانيه الشعرية، له ديوان بعنوان: "ديوان أحمد سحنون"، كما له قصائد نشرت في مجلة " البصائر"، وله ديوان شعر للأطفال. ينظر:[شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت"، موقع: http:www.almoajm.org].
(٤) "ديوان الشيخ أحمد سحنون" – أحمد سحنون – ص (١٨٥) – طبعة: منشورات الحبر – الثانية ٢٠٠٧م، والأبيات من بحر الطويل.

فَيَـا عَـالَم النَّجـوى ويـا رَاحـم الـوَرَى ∴ وكاشـــفَ بلوَاهَـــا وســـامعَ شـــكوَاهَا
ســـألتُك إيمانًـــا برحمتِـــك الَّتـــى ∴ وســـعْت بهـــا الـــدنْيا وعمَّـــت عَطَايَاهَـــا
ســألتُك لُطفًـا عـاجِلاً يطفـىءُ الجَـوَى ∴ وصـــبرًا يَقِـــى نفسِـــى مفـــاتِنَ دُنْيَاهَـــا

**فهو يدعو الله – عز وجل– ويثنى عليه بصفاته العلا، ويتضرع إليه سائلاً اللطف والصبر، ومن جهة الفن بدا ما أفاده تكرار النداء في البيت الأول، وتكرار السؤال في الثانى والثالث من معنى تضرع الشاعر لله – تعالى –، وإلحاحه في طلب اللطف والصبر، عسى أن يقبله – تعالى– فيدركهما.**

**كما اقترنت معانى الصبر والعزاء بالتضرع والدعاء فـي قصـيدته "سـاعة الدفن" وقد كتبها في الغرض نفسه وأهداها إلى روح ابنته، يقول(١):**

ربِّ فـارْحمْ "سـعيدةَ" واعـفُ عَنْهَـا ∴ وارْعَهَـــا وارْعَ بَعْـــدَهَا الأَوْلَـــادَا
وَمُـــرِ الصَّـــبرَ أنْ يُجَـــاورَ مَثْـــوَاهُم ∴ لِيمْحُـــو الأَسَـــى ويجْلُـــو السُّـــهَادَا
وتـــداركْهُمْ بلُطْفِـــكَ واحفَظْهُـــم ∴ وزدْهُـــم تآلفًـــا واتِّحَـــادًا!

**وضح أنَّ الشاعر قد مس قلبه الصبر والعزاء والشعور بالرضا، فهو يـدعو لابنته بالرحمة والمغفرة ثم لأحفاده بأن يدركهم اللطف ويلم شتاتهم الصبر فتهون عليهم مصيبة الفقد.**

**ولعلها هى المشاعر نفسها التى مسَّت قلبَ "عائشة التيمورية" فراحت تبكـى ابنتها، وتدعو لها تقول(٢):**

أبكيـكِ حتَّـى نلتَقِـى فـى جنَّـة ∴ بريـاضِ خُلْـدٍ زيَّنَتْهَـا الحُـورُ
قَلبِـى وجفنِـى واللِّسـانُ وناظِرِى ∴ راضٍ وبـاكٍ، شـاكرٌ وغفـورُ
مُتِّعْـتِ بالرضـوانِ فـى خُلْـدِ الرِّضَـا ∴ مـا ازَّيَّنَـتْ لـكِ غُرفـةٌ وقصُـورُ
وسمعـتِ قـوْلَ الحـقِّ للقـومِ ادخلُـوا ∴ دارَ السَّـلَام فسـعيُكُم مشـكورُ

(١) "ديوان الشيخ أحمد سحنون" – ص (١٨٦) .
(٢) ديوانها :"حلية الطراز" ص (٩١)، مرجع سابق، والأبيات من بحر الكامل.

ومما جاء في اقتران معانى الصبر والعزاء بالتضرع إلى الله- تعالى- والدعاء نثرًا ما جاء عن مصطفى لطفى المنفلوطى في رثاء أولاده يخاطبهم[1]:

« إن قدَّر اللهُ لكم أنْ تتلاقَوا في روضةٍ من رياض الجنَّة أو على شاطىءٍ غدير من غُدْرانِها، أو تحت ظلال قصر من قصورها، فاذكرونِى مثلَ ما أذْكركم، وقِفوا بين يَدىْ ربكم صفًا واحدًا كما يقفُ بين يديه المصلُّون، ومُدُّوا إليه أكُفَّكُم الصغيرة كما يمدها السائلون، وقولوا له: اللَّهم إنَّك تعلم أنَّ هذا الرَّجل المسكين كان يُحِبُّنَا وكنَّا نُحِبُّه، وقد فرَّقت الأيَّام بيننا وبينه، فهو لا يزال يلاقى بعدنا من شقاء الحياةِ وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله، ولا نزال نجدُ بين جوانحِنَا من الوجد به والحنين إليه ما يُنَغِّص علينا هذه النِّعمة التى نَنْعَمُ بها في جوارك بين سمعِك وبصرك، وأنتَ أرحم بنا وبه، فإما أنْ تأخذنا إليه أو تأتى به إلينا .. لا بل لا تطلبوا منه إلَّا أنْ يأتى بى إليكم فإنَّ الخياة التى كرهتها لنفسى لا أرضاها لكم، فعسى أنْ يستجيبَ اللهُ من دعائكم ما لم يستجبْ من دعائى فيرفع هذا الستار بينى وبينكم فنلتقى كما كنا» .

لعل أمل المنفلوطى في ربه وإيمانه بقضاء الله – تعالى – وقدره هو ما أضفى على حزنه ما نراه في هذا النَّص من صبر وعزاء وسكينة واستسلام، فهو وقد ضاق ذرعًا بشقاء حياته وآلامها فإنَّه يسترحم ربه ويتوسل إليه بلسان أبنائه الرَّاحلين الأطهار أنْ يجمعه بهم في روضة من رياض الجنة، أو على شاطىءٍ غدير من غدرانها، غير أنَّ أكثر ما بدا واضحًا في النَّص هو مقدار ما بلغ المنفلوطى من آلام وبأساء أفقدته صوابه حتى ليرى أولاده إلى جوار ربهم متألمين فيطلب إلى ربه أنْ يلحق بهم أو يعيدهم إليه.

وربما كان التجانس اللفظى وتكرار الحروف بين كلمات "روضة، ورياض" و"قصر، وقصور" و"اذكرونى، وأذكركم" و" قفوا، ويقف، و"مدوا، ويمد"، و"يحبنا، ونحبه، و"بيننا، وبينه، و"النعمة، وتنعم" و" يستجيب، ويستجب" و"بنا، وبه" أهم ما بدا فى هذا النَّص من ظواهر فنية في أسلوب المنفلوطى، حيث تكرار وتشابه

(١) "النظرات" – مصطفى لطفى المنفلوطى – ج١ ص (٥٥).

الحروف وتجانسها وما يضفيه على النص من موسيقا عذبة، وهدوء يتلائم مع حالة الحزن والأنين.

ومما جاء أيضًا في اقتران معانى الصبر والعزاء بالتضرع والدعاء ما كتب "أحمد أمين" يناجى ربه – بلسان آخر فجع في ولده – تحت عنوان " من صور الحياة"، يقول(١):

«إنه قد ماتَ قلبى بموتِ ابنى فأحْيهِ بك، وقد انطفأتْ شعلتى فأَمدَّها بنورِكَ، إنِّى فقير إليك فألهمنى الصبرَ، لقد كنت في حلم فتبدَّد، وفى سعادةٍ فزالت، فلا ألجأُ الآن إلا اليك، لا أسألُكَ الآن سعادةً فقد ملَلْتُها، ولا شيئًا من مُتَع الدُّنيا فقد زَهدْتُها، وإنَّما أسأَلُكَ أنْ أَمَسَّ رحمتَك لأُلَطِّف بها حرارَة الحمى في كَبِدِى، وأنْ أسبحَ في بحركَ الواسع أُطَهِّر فيه نفسى من يأسِى، وأنْ تهبَنَى قَبَسًا من حكمَتِكَ أدركُ بها الدُّنيا على حقيقتها، فلا أَجزعُ لمصائبها، ولا أُخدَعُ بزخارِفِها...» .

أى خاطر فياض وإحساس مبدع أوحى لـ "أحمد أمين" أن يرصد هذه الصورة لأنات متألم صابر وزفرات باك محتسب، ودعوات والد فجأه القدر في ولده؟ يتضرع إلى الله – تعالى– أن يهبه قوة وحكمة وروحًا صابرةً تسمو به إلى مراقى الرضا بعيدًا عن آلام اليأس والقنوط، ومن جهة الفن بدا ما أفاده تكرار التعبير بـ "قد"، و"إنَّ" لهذه المعانى من تأكيد وتحقيق.

وقد استطرد "أحمد أمين" في رصد هذه الصورة من صور الحياة، والتى يفيض صاحبها في التضرع والدعاء(٢):

«أىْ ربِّى: اغفر لى جهلى بك، وغُرورى بمالى، واعتِزازى بجاهى فلا عزَّ إلا بك، ولا أَملَ إلا فيك، ولا اعتمادَ إلا عليك .. أى ربى: اسكن قلبى فقد صارَ هواء، وآنسْ وحشَتى فقد نُزِعْتُ من كلِّ شىء حولى، واطْو الحياةَ طيًّا حتَّى ألْقى وجهكَ ووجهَ ابنى .. ما الدُّنيا إذا كانت تذهبُ في لحظةٍ؟ وما النعيمُ يضيعُ في لمحةٍ؟، وما كلُّ شىءٍ في الدنيا بجانبِ الحياة .. » .

(١) "فيض الخاطر" – أحمد أمين – ج١ ص(١٧٩) .
(٢) المرجع نفسه ج١ ص (١٨٠) .

يصور "أحمد أمين" صاحب هذه الصورة غافلاً مغترًا بما أوتى من نعم، ثم تصيبه لطمة القدر بزوال نعمة الولد زينة الدنيا ومبعث بهجتها، فإذا هو عائد إلى الله، قريب منه، نادم على ما فات متيقن أن الدنيا عرض ونعيمها وشقاؤها زائل، وكأنها موجة سارت إلى الشاطىء ثم اختفت.

أما "أحمد حسن الزيات" فقد فاقت آلام نفسه المحترقة لفقد ابنه ما قد يمس قلبه من صبر وإحتساب، فهو يقول معلقًا على ما أثر عن النبى -ﷺ- في فقد ولده "إبراهيم" :

«تَعَزيتَ يا رسول الله لأنَّ الألَمَ سبيل من سبل دعوتِكَ، والعزاءُ أصل من أصول دينِكَ، والأرضُ وما عليها أهون من دمعِكَ، والسماءُ وما فيها ثواب لصبركَ، ولكن ماذا يصنعُ اليائسُ المحزونُ إذا فقدَ الرجاءَ، وليس لهُ فى يومِهِ صبر ولا فى غَدِهِ عزاء ...» [1] .

وإذا كان من شعور بالصبر والعزاء ففى توجهه إلى الله – تعالى –بالطلب والنداء[2]:

« يا جبَّار السماواتِ والأرض رُحماكَ!، أفِى مثل خفْقَةِ الوسْنان تُبَدَّلُ الدُّنيا غير الدُّنيا؟ ...حنانَيْكَ يا لَطيف!.. ما هذا اللهيب الذى يهبُّ على غِشَاءِ الصدر ومزاق البطن، فَيَرْمِضُ الحَشَا ويُذيب لفائفَ القلب؟، اللهم هذا القضاءُ، فأين اللُّطف؟، وهذا البلاء فَأين الصبر؟، وهذا العدلُ، فأينَ الرَّحمة؟ ...لنا الله من قبلك ومن بعدك يا "رجاء"، وللذين تطوَّلوا بالمواساة فيكَ السَّلامَةُ والبقاءُ!...» .

فهو يتحنن إلى الله – تعالى – بأسمائه، بطلب اللطف والرحمة والصبر، ويدعو لمن واساه في مصيبته بالسلامة وطول الأمل، وغير خفى ما في ذلك من معانى الصبر والاحتساب، أما كثرة الاستفهامات في أسلوب الشاعر، فلا شك في أنَّها أسهمت في تكثيف درامية النَّص، وإتمام الصورة التى نرى من خلالها ذات الشاعر وحالته النفسية الحزينة والمتألمة.

(١) "وحى الرسالة" – أحمد حسن الزيات – ص (٣٠٨).
(٢) المرجع السابق ص (٣٠٧).

وحين نقرأ رثاء "جليلة رضا" لابنها شعرًا ونثرًا لا تجد مع نفسها الملتاعة معنى لصبر أو عزاء، سوى ما تسلل إلى قلبها من تسليم واحتساب في تلك الكلمات التى ختمت بها رثاء ابنها منسوبة للرافعى من كتابه "المساكين"، يقول(١):

«من يهربُ من شيءٍ تركهُ وراءهُ إلا القبر، فما يهربُ أحد منه إلا وجده أمامه .. هو أبدًا ينتظرُ غير متملْمِل، وأنتَ أبدًا متقدِّم إليه غير متراجع، وليس هناك عنوان لما لا يتغيَّرُ إلا اسم الله، وأينما يذهبُ الأنسانُ تلَقَّتهُ أسئلة كثيرة: ما اسمُك.؟، وما صِنَاعتُكَ؟، وكمْ عُمْرُكَ؟، وكيف حالك؟، وما مذهبُك؟، وما رأيُكَ؟، ثم يبطلُ هذا كلُّه عند القبر، وتبطُلُ اللُّغات البشريَّةُ كلُّها في الفم الأخرس، وهناك يتحرَّكُ اللسانُ الأزليُّ بسؤال واحدٍ للإنسان: ما أعمالُكَ؟...».

ولعل ما يبدو من صبر واحتساب ونزعة وتسليم بالقضاء بين هذه السطور والكلمات هو حد الرضا والعزاء لدى الأدباء ذوى النفوس الملتاعة، وحين يكون الفقد في الأبناء لا نجد من يبالغ في تصوير معانى الصبر والعزاء إلى حد يدعو مثلاً إلى غبط من مات ويشفق على من بقى، فربما من مات قد اختصر الحياة بهمومها وأحزانها، ووفر عبئًا ثقيلاً ينتهى مختصره بما ينتهى به مطوله، ولكن حق للأدباء المتألمين، ولا شك أن الرزء في الأبناء ليس كغيره من الأرزاء.

وفى ختام الحديث عن الخطاب الأدبى إلى الأبناء ألمًا وحزنًا ربما من فضل القول أنْ ننبه إلى أنَّ آلام فقد الأبناء هى الأكثر تأثيرًا في عاطفة الأدباء، غير أنَّ أسبابًا أخرى مثل الفرقة أو المرض أو غير ذلك مما يصيب الأبناء يستبد بوجدان الأدباء فيحدث في نفوسهم آلامًا يكون لها بالغ الأثر في عاطفتهم، ومن ثم في خطابهم الأدبى إلى أبنائهم، وإلا فمن منا لا يخفق قلبه ويشعر بشوق البارودى وحنينه ونفسه المتألمة لنأيه عن بناته في قصيدته الذائعة "طيف سميرة" التى

(١) نقلاً عن :"صفحات من حياتى" – جليلة رضا– ص (١٣١).

كتبها في منفاه بجزيرة "سرنديب"(١) وقد زاده طيف ابنته الوسطى في المنام، ومنها قوله(٢):

فيا لَكَ من طيفٍ أَلَمَّ ودونَهُ ∴ محيط من البحرِ الجنوبيِّ زاخِرُ
تَخَطَّى إلى الأرضِ وجْدًا، ومالَه ∴ سوى نزواتِ الشَّوْقِ حادٍ وزاخرُ
أَلَمَّ وَلَمْ يَلْبَثْ، وسَارَ، وليتَهُ ∴ أقامَ، ولو طالتْ عَلَيَّ الدياجِرُ

ثم يقول:

فيا بُعْدَ ما بيني وبينَ أَحبَّتِي ∴ ويا قُرْبَ ما الْتَفَّتْ عليه الضمائِرُ
ولولا أَمانِي النفس وهي حياتها ∴ لما طارَ فوق البسيطةِ طائرُ
فإنْ تكنِ الأيامُ فرَّقْنَ بينَنَا ∴ فكلُّ امرىءٍ يومًا إلى اللهِ صائرُ

فعلى الرغم من أنَّ الإنسان لا يرى في نومه إلا ما يشغل قلبه ويضطرب به باله، نرى البارودى يتعجب من زيارة طيف ابنته منامًا وبينه وبينها هذه البحار والمحيطات الهائلة، وكأن هذا الطيف زاره حقيقة وليس منامًا، لكن هذا الطيف سرعان ما ارتحل وترك الشاعر لآلامه يتمنى أن لو أقام معه طيف ابنته الليل كله، ولو أدى ذلك لأن تطول عليه ظلماته.

ثم هو يتألم لبعد المسافات بينه وبين بناته لاسيما وهو وحيد ليس معه سوى ما تكنه نفسه من آلام الشوق والحنين، وليس من تسرية في هذا البعد، وهذه الوحشة سوى إيمانه بما يقوم عليه شأن الدنيا من فرقة صائرة بين الأحبة ولو بنهاية الآجال.

وكذلك من منا لا يتألم لعاطفة الشاعر "أحمد سحنون" وهو يخاطب ابنته من محبسه(٣):

أعائشُ: يا دنيا لحوني وأنغامي ∴ ومسرحَ آمالي ومشرقَ إلهامي

(١) سرنديب: هى جزيرة عظيمة في بحر هركندا بأقصى بلاد الهند، طولها ثمانون فرسخًا في مثلها عرضًا. [معجم البلدان – الشيخ الإمام ياقوت الحموى–ج٣ ص (٢١٥)– ط: دار صادر– بيروت– دون تاريخ].
(٢) "ديوان البارودى" – محمود سامى البارودى –ج٢ ص (٧٩)، والأبيات من بحر الطويل.
(٣) "ديوان الشيخ أحمد سحنون" – ص (١٨٨)، والأبيات من بحر الطويل.

لئن غـاب عـن عينـى محيَّـاكِ ولم يغـبْ ∴ خيالُـك عــن قلبــى ولا حبُّــكِ النَّــامى
وإن غلــب عــن أُذُنــى حــديثُكِ إنَّ فــى ∴ خطابــكِ مــا يُشــفى بتعــبيره السَّــامى
فصــبرًا علــى الخطــب المفــرِّق بيننــا ∴ فعقبــــاه أن نحظـــى بعـــز وإعظـــام
ولا تيأســـى فالليـــل لا بـــدَّ منتـــهٍ ∴ دُجَـــاهُ بصـــبح مشـــرقِ النـــورِ بسَّـــامِ

ينادى الشاعر ابنته على البعد، بعد أنْ غيبته أسوار السجن عن رؤيتها، فلم يتبق له سوى زيارة طيفها في الخيال، وما تؤنس به وحدته من خطابات ترسلها، وهو يدعو نفسه ويدعوها إلى الصبر على هذا البلاء، وترقب يوم آت يزول عنه القيد، ويتنسم عبير الحرية؛ لينعم بوصالها، ويبل الشوق ويطفىء وهج الحنين.

❊ ❊ ❊

# الفصل الثانى

## الخطاب الأدبى إلى الأبناء (أملاً ورجاءً)

ويضم مبحثين:

المبحث الأول: فى البهجة والفرح.

المبحث الثانى: فى النُصح والإرشاد.

# الفصل الثانى
# الخطاب الأدبى إلى الأبناء "أملاً ورجاءً"

## توطئة:

يشرق الأبناء في نفوس الآباء إشراقة الأمل، ويبعثون في حياتهم معانى السعادة والجدة والتطلع إلى المستقبل .. آمال وطموحات – وربما أطماع يجتهد الآباء في تحقيقها لتبقى لأبنائهم من إعزاز وكفى، وليس كذلك الأدباء الذين ينظرون إلى هذه الآمال على أنها أيام من حياتهم عاشوها طولاً وعرضًا مع أعز الأحباب .. غذاء أدبى لاذ أشهى من مائدة عامرة بالمعانى والأفكار، وحافلة بصور التعبير والألفاظ، ومن ثم يطلقون بيانهم يمتح من معين تلك الآمال صورًا للبهجة والفرح، وأخرى للنصح والإرشاد.

* * *

# المبحث الأول
# فى البهجة والفرح

ألهمت البنوة الأدب آيات رائعات في البهجة والفرح سجلها الشعر آنًا والنثر تارة، فمن وحى البنوة في الشعر قصائد وأغنيات تبعث على البهجة والسرور، ومن منَّا لا يطرب قلبه حين يسمع تلك الأعرابية تهدهد ولدها وترتجز(١):

يـــا حبَّـــذا ريـــحُ الولَـــد ∴ ريـــحُ الخُزَامَـــى فـــى البلَـــدْ
أهكَـــذا كـــلُّ ولَـــد ∴ أم لم يلـــدْ مثلِـــى أَحَـــدْ؟

ليس أدل من هذا على إلهام البنوة البهجة والفرح، فهى أمّ تناجى ولدها في صورة الأمومة المشرقة، وإنْ كان من بساطةٍ فى الأسلوب وسذاجة في الألفاظ فهى بساطة النفس الإنسانية المرسلة على سجيتها، وسذاجة الفطرة المتأصلة، ومشاعر أمّ تشم عطر الطفولة من ولدها، فتراه أحلى من عطر الزهور، وما أكثر توفيق هذه الأمِّ في اختيار موسيقا البيتين على بحر الرجز لما يبعث من البهجة والطرب ويبدو وكأن هدهدة الأطفال شعرًا لا تصلح إلا عليه.

ويبدو أن سمع هذه الأعرابية "أحمد رامى"(٢) فتداعى لها فرحًا وطربًا، فهو يخاطب ابنه(٣):

يـــا بُنـــىَّ، مـــا أُحيْلَـــى يـــا بُنـــىْ ∴ أنـــتَ ظـــلُّ مـــدَّه اللهُ عَلـــىْ
نعمـــةُ العمـــرِ وتـــذكارُ الصِّـــبَا ∴ والأمـــانِىُّ التـــى عـــزَّت لَـــدَىْ
لســـتُ أنســـاكَ جنينًـــا خافيًـــا ∴ فـــى ضـــميرِ الغيـــبِ أدعـــوكَ إلىْ

---

(١) "مختارات شعرية" – لملتقى رابطة الواحة الثقافية– شبكة المعلومات الدولية: www.rabitat-alwaha.net

(٢) أحمد رامى: ولد في أغسطس عام ١٨٩٢م، وتخرج في مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤م، وعمل في بداية حياته مدرسًا للجغرافيا، وهو شاعر غنائى وصاحب مدرسة شعرية غنائية، تخرج منها عشرات الشعراء، واشتهر بشاعر الشباب، واتصاله بأم كلثوم، وله ثلاث دواوين شعرية جمعها في ديوانه الكبير (ديوان رامى)، وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٥م، وتوفى عام ١٩٨١م. ينظر:[تكملة معجم المؤلفين – محمد خير الدين رمضان – (٥٧٠) – ط: دار ابن حزم للطباعة – الأولى ١٩٩٧م].

(٣) "ديوان رامى" – الشاعر أحمد رامى – ص (١٠٣) – ط: دار الشروق– الأولى ٢٠٠٠م، والأبيات من بحر الرمل .

أتمنَّـــــاكَ لعينِـــــى قُـــــرَّةً ∴ حـــينَ ألقـــاكَ وليـــدًا فـــى يَـــدَى
أرقُـــبُ اليـــومَ الـــذى تبسُـــمُ لِـــى ∴ وتـــرَى آىَ الرِّضَـــا فـــى مُقْلَتَـــىْ
فأُناجيـــكَ بألحـــانِ الهَـــوى ∴ ســـابقاتٍ خـــاطِرى فـــى شَـــفَتَىْ
كلمـــات هـــى لا مَعْنَـــى لهـــا ∴ غـــير أنْ تســـمعَ مِنِّـــى أىَّ شَـــىْ
فتراعينـــى ولا تقـــوَى علَـــى ∴ غـــضِّ أجفانِـــك عنِّـــى يـــا بُنَـــىْ

**أكثر ما يميز هذه الأبيات من جهة الفن موسيقاها المرحة، فهى لحن يحلـو على الترديد، وأغنية أب يرى في ابنه قرة عينه وأثره الباقى .. يفـرح بـالنظر إليه، ومثوله بين يديه بعد أنْ كان أمنية في علم الغيب ثم جنينًا في الحشا، فهـو يناجيه ويداعبه ويأبى أنْ يتحولَ الصغير عنه ولو بناظريه.**

**وهى المعانى نفسها التى يخاطب بها الشاعر "أحمد سحنون" ابنتيـه فرحًـا وسرورًا في قصيدته بعنوان "ابنتاى"، وقد بدأها بقوله(١):**

تبوأتُمـــا مهجَتِـــى يـــا ابْنَتَيَّـــا ∴ ولازمَ طيفاكُمـــــــا مُقلتيَّـــــــا
أرى البيـــتَ روضًـــا بشَخْصـــيْكُما ∴ وإن غِبتُمـــا كـــان ســـجنًا عليَّـــا
وأسمـــعُ صـــوتَ الحيـــاةِ الـــرحيمِ ∴ إذا مـــسَّ صـــوتاكُما مَسْـــمَعَيَّا
متـــى عـــدتُ للبيـــت أقبلتُمـــا ∴ قطـــاتين خَفَّـــاقَتَيْنِ إليَّـــا
تُقَبِّـــلُ إحـــداكما وجنَتـــىَّ ∴ وتلـــثُمُ أخراكُمـــا شَـــفتيَّا
وكلتاكُمَـــا تَتَشَـــبَّثُ بـــى! ∴ وتُثْنـــى علـــى عنقِهَـــا ســـاعِدَيّا
هنالِـــك تســـكُنُ نفســـاكما ∴ بقُربـــى وتســـكُنُ نفســـى مَلِيَّـــا

**إنَّها خفقات قلب ينعم بالسعادة والسكن في القرب من ابنتيه، ولا يرى لحايته معنى في البعد عنهما، كما أنَّه يرى البيت يموج بالحركة والمرح ويزهو بالبهجة والفرح حال وجودهما، فإذا خلا منهما وقتًا تحول إلى سجن تعلوه الكآبة ويخـيم عليه الحزن.**

(١) "ديوان أحمد سحنون" – ص (٦١)، والأبيات من بحر المتقارب .

وفى قصيدة أخرى لم تختلفْ وزنًا أو تغاير معنى خاطب فيها "أحمد سحنون" "ابنيه" غير أنَّه لم يبدأها بالخطاب، يقول(١):

وأطيبُ ساعِ الحياةِ لديَّا ∴ عشيَّةَ أَخْلُو إلى وَلَدَيَّا!
إذ أنا أفبلتُ يهتفُ باسمِى ∴ العظيمُ ويحبُو الرضيعُ إليَّا!
فأُجلِسُ هذا إلى جانِبى ∴ وأُجلِسُ هذا على رُكْبَتَيَّا!
هُنالِكَ أنسَى متاعبَ يومِى ∴ كأنْ لمْ ألقَ فى اليوم شَيَّا
وأحسُبُنى بينَ طِفلىَّ "شاهًا" ∴ وأحسبُ كوخِى قصرًا عليَّا
فكلُّ طعامٍ أراهُ لذيذًا ∴ وكلُّ شرابٍ أراه شهيًّا
وما حاجتى لغذاءٍ وماءٍ! ∴ بحسبى طِفْلَاىَ زادًا وريًّا

يرى الشاعر في طفليه حين يجتمعا بين يديه كل معانى السعادة والغنى بل كل معانى الحياة، ثم هو يخاطبهما(٢):

أَيَا ابْنَىَّ أحببْ بما تُتْلِفَان! ∴ وأَهونْ بِمَا تُكْسِران عَلَيَّا
يصُونُكمَا اللهُ فى حادثاتِ ∴ الزَّمانِ ويُبْقِيكمَا لِى مَلِيَّا
أمنْ كَبِدِى أَنْتُمَا فَلْذَتَانِ ∴ أم أنتُما حبَّتَا مُقْلَتَيَّا؟
ألا ليْتَ شِعْرِى أتمتدُّ بى ∴ حياتِى فأجْنِى غرسَ يَدَيَّا؟

إنَّها مشاعر أب يرى كل فعل لطفليه جميلاً عزيزًا لا فرق في ذلك بين ما يحبه الآباء من أطفالهم وبين ما يتذمر منه بعضهم، ثم هو يدعو لولَديْه بالسلامة وطيب الحياة ويرى في ذلك جزاءً لما أعطى وقدم ويتمنى لو يمتد به العمر حتى يرى ذلك لهما.

أما من جهة الفن فلعل أهم ما يميز خطاب "أحمد سحنون" لابنيه ظاهرة "تراسل الحواس"(٣) في قوله: "فكل طعام أراه لذيذًا"، وقوله: "وكلُّ شراب أراه

(١) من قصيدة "أنا وابناى"، "ديوان أحمد سحنون" – ص (٦٢).
(٢) القصيدة نفسها.
(٣) ظاهرة أسلوبية عرفها النقد الحديث بأنها:" وصف مدركات كل حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأخرى، فتعطى مثلاً المسموعات ألوانًا، وتصير المشمومات أنغامًا، وتصبح

شهيا"، حيث أسند الشاعر بطريق التصوير والمجاز فعل حاسة التذوق إلى حاسة البصر، بما أفاده ذلك من ثراء الدلالة بمعنى حاستين رغم أن الشاعر ذكر حاسة واحدة فهو يتذوق الطعام والشراب برؤيته فضلاً عما يفيده ذلك من تعدد أفانين القول، وتنوع مواطن جمال الأسلوب.

أما أمير الشعراء فقد تواكب خطابه الشعرى لأبنائه- فرحًا وسرورًا- مع المناسبات، ومن ذلك قوله وقد أتمت ابنته "أمينة" حولاً[1]:

أَمِينَتِي فِي عامِهَا الـ ∴ أوَّل مثلُ الملَكِ
صالحة للحبِّ من ∴ كلٍّ، وللتبرُّكِ
كم خَفَقَ القلبُ لَهَا ∴ عند البُكَا والضَّحِكِ
وكم رَعَتْهَا العَيْنُ فِي ∴ السُّكون والتَّحَرُّكِ
فيا جبينَ السَّعدِ لِي ∴ ويا عيونَ الفَلَكِ
إن اللَّيالِي وهيَ لا ∴ تَنْفَكُّ حَرْبَ أَهْلِكِ
لو أَنْصَفَتْكِ طفلةً ∴ لكُنتِ بنتَ المَلِكِ

فهو يصف جمال طفولتها، وخفقان قلبه لها، وتعلقه بها، ولعله في البيت الأخير يتمنى أنْ لو كان ملكًا لجدارة ابنته بالإمارة، لكنه وقد اعتاد محاربة الأيام له يتمنى لها الخير ولو في معزل عنه.

وقد بدا ما أفاده تكرار الطباق وصور التضاد في الأبيات- بين كلمات "البكاء والضحك، والسكون والتحرك" – للمعنى من عمومية رقة قلب شوقى لابنته على أية حال تكون عليها، وكذلك ما أفاده اللفظ بما أكسبته كل واحدة من الكلمات المتضادة أختها نسقًا ورواءً وبهاء.

---

المرئيات عاطرة ..." . ينظر:["النقد الأدبى الحديث" – دكتور/ محمد غنيمى هلال- ص (٣٩٥) – ط: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع-٢٠٠٤م ].

(١) من قصيدة بعنوان :"أمينة" – الشوقيات –ج٣ ص(٩٨) – ط: دار الكتاب العربى – بيروت – دون تاريخ ، والأبيات من بحر الرجز.

وبعد مرور عام آخر كتب شوقى لابنته فرحًا وسرورًا بالذكرى الثانية لميلادها تحت عنوان:"طفلة لاهية" يهنئها بالمناسبة، وشأن كل الآباء يدعو أن تسلم على الأيام والسنين ليراها عروسًا وزوجًا ثم أُمًّا لأبناء صالحين، يقول(١):

أمينة يا بنتىَ الغالية ∴ أهنِّيكِ بالسَّنَةِ الثَّانِيَة
وأسألُ أن تسلمِى لى السنينَ ∴ وأن تُرزقى العقلَ والعافِيَة
وأن تُقسَمِى لأبرِّ الرِّجالِ ∴ وأن تلدِى الأنْفسَ العالِيَة

ثم هو يداعبها ويذكر لها ما كان بينهما من أحداث في السنة الماضية، بل ما يكون بين الأطفال والآباء(٢):

ولكنْ سألتُك بالوالدين ∴ وناشَدْتُكِ اللُّعَبَ الغَالِيَة
أتَدْرينَ ما مرَّ من حادثٍ ∴ وما كانَ فى السنةِ الماضيَةْ؟
وكم بلتِ فى حُلَلٍ من حريرٍ ∴ وكم قَدْ كَسَرتِ مِنَ الآنِيَة؟
وكمْ سَهرَتْ فى رضَاكِ العيونُ ∴ وأنتِ على غَضَبٍ غَافِيَة؟
وكم قَدْ خَلَتْ مِنْ أَبيك الجيوبُ ∴ ولَيْسَت جيوبُكِ بالخَالِيَة؟
وكم قَدْ شَكَا المُرَّ من عَيْشِهِ ∴ وأنتِ وحلْوَاكِ فى ناحِيَة؟
ويَضْحَكُ إن جِئْتِهِ تضحكينَ ∴ ويبكى إذا جئتِه باكِيَة!
ومن عجبٍ مرَّتِ الحادثاتُ ∴ وأنت لأحْدَاثِهَا نَاسِيَة!

مناغاة والد لابنته بدأها شوقى بمناشدتها بأغلى ما يملكه الطفل اللاهى أن تتذكر معه هذه الأحداث، ثم هو يصور مشاعر غنية بالألوان، لا أدل منها – حين يكون التدليل- على أن أحلى ما تتلقفه العيون دلالاً وسعادة وفرحًا وتعيشه الأرواح راحة وصفاء وسكنًا هى تلك الأوقات التى يعيشها الآباء مع فلذات الأكباد وزهرات القلوب، وقد بدا واضحًا ما أفاده أسلوب الإستفهام وتواليه في الأبيات من التعبير عما يملكه قلب شوقى لابنته من تلك الدفقات الشعورية المفعمة

(١) "الشوقيات" – ج٣- ص (٩٩)، والأبيات من بحر المتقارب.
(٢) المرجع نفسه.

بالبهجة والسرور، فضلاً عما تفيده كثرة الاستفهامات من جذب القارىء لأجواء النص المشحون بمشاعر الحب والفرح.

وكذلك قال "الأمير" يصف جمال أميرته وبراءة طفولتها فرحًا بها وقد قبلها قبلة في الصباح(١):

يـــا شِـــبْه ســـيدةِ البتـــو ∴ ل، وصـــورةَ المَلَـــكِ الطَّهُـــورْ
نسَّـــى جمالُـــك فـــى الإنـــا ∴ ثِ جمـــالَ يوسُـــفَ فـــى الـــذُّكُورْ
زيْـــنُ المهـــودِ اليـــوم أنـــ ∴ تِ، وفـــى غـــدٍ زيْـــنُ الخُـــدورْ
إن الأهلَّـــــةَ إنْ سَـــــرَتْ ∴ ســـارَتْ علـــى نهـــجِ البُـــدُورْ
بـــأبى جـــبين كالصَّـــبَا ∴ حِ إذا تهيَّـــأَ للسُّـــفُورْ
بَقِيَـــتْ عليـــهِ مـــن الـــدُّجَى ∴ تلـــكَ الخيـــوطُ مـــن الشُّـــعُورْ
قَبَّلْتُهَـــا وشَـــمَمْتُهَا ∴ وســـقَيْتُهَا دمـــعَ السُّـــرُورْ

وقد بدا من الأبيات فرط تأثر شوقى وفرحه بأمينته حتى لتفيض عيناه بدموع الفرح حين يصف جمالها ويقبلها(٢).

ولعل أكثر ما بدا في هذه الأبيات من فن هو تلك الصور الناتجة عن كثرة التشبيهات بالسيدة البتول، وبصورة ملك طهور، ويشبه جمالها بجمال "يوسف" – عليه السلام– بين الذكور، ويشبه جبينها بالصباح في أول طلعته، وهى تشبيهات استخدم فيها خيال شوقى أدواته من تجاوز الواقع وإعادة تشكيل المدركات

(١) قصيدة "زين المهود" – "الشوقيات"– ج٣ ص (١٠٥)– والأبيات من مجزوء الكامل.

(٢) والحق إن ذلك لم يكن حال شوقى مع ابنه "على"، فرغم سعادته به لم يخاطبه كثيرًا في شعره ولعل بيان ذلك في قوله يخاطبه تحت عنوان:"الزمن الأخير":

علىٌّ لـو استشـرتَ أبـاك قـبلاً
فـإنَّ الخيـرَ حـظُّ المستشِـيرِ
إذًا لعلمْـتَ أنَّـا فـى غنـاءٍ
وإن نَكُ من لقـاءِك فـى سـرُورِ

["الشوقيات" –ج٣ – ص (٩٥)، والأبيات من بحر الوافر].

ولا شك في سعادته بأن يرزق ولدًا بعد ابنته، ولكن بدا أنه كان يتمناه في زمن مضى، وإن كان من أسف فللزمن الذى ولى، وللشباب الذى لا يعود.

وطمس الحدود بينها إلا أنها جاءت مألوفة تدل على جمال أسلوب الشاعر وأصالته.

وقريب من هذا الخطاب لشوقى جاءت معانى "إبراهيم ناجى" في خطابه الشعرى لابنته "ضوحية" فرحًا بها وسرورًا وتسجيلاً لذكرى المناسبة، ومن ذلك مخاطبته لها في ذكرى ميلادها الرابع عشر تحت عنوان:" إلى أميرتنا"(١):

أقبِلِي يا أميرةَ اللُّطفِ حُبِّي ∴ واقبلي مِنْ أبيكِ هذا الخِطَابَا
اجعليهِ ذِكْرَى لهُ، واجْمَعِي ∴ الآراءَ فيه واسْتكتبى الأصْحَابَا
جعل اللهُ كلَّ عمركِ عيدًا ∴ وربيعًا مُنَضَّرًا وشَبَابًا

وحين طلبت إليه أن يهديها شعرًا كتب يخاطبها(٢):

يا من طلبت الشعرَ هاكِ تحيَّتى ∴ وهواىَ يا روحِى ويا ضوحِيَّتِى
أيرادُ تفصيل لما عندى، وكَمْ ∴ قلب وموجزُ أمرِهِ فى لفظةِ
لكنَّ فنَّ الشعرِ وردُ أحبَّةٍ ∴ يُهْدَى فهاكِ قصيدَتِى بل وَرْدَتِى
والشعرُ روض يانع وعبيرُهُ ∴ سارَ إلينا من عبيرِ الجنَّة
وأراكِ روضةَ رقةٍ ومحاسن ∴ هل روضة تُهدِى البيانَ لروضةِ
فإليكِ يا أَغلَى عزيزٍ يا ابنتِى ∴ وأحبَّ مَنْ تصبُو إليه مُهْجَتِى
تذكارُ والدِكِ المحبِّ وديعةً ∴ فإذا ذكرتِ فهذهِ أمنيَّتى

يرى ناجى شعره وردًا وريحانًا زكيًا، فهو يهديه تحية لابنته التى يصورها روضة بديعة وجديرة بهذا العبير،وهذه الوديعة الغالية،وحق للشاعر هذا التصوير، فإذا كان الشعر سلوة المتألمين وورد العاشقين فهو أيضًا تذكار المحبين.

ويبدو أن اعتاد إبراهيم ناجى أن يوجه لابنته خطابه الشعرى تعبيرًا عن الفرح والسرور بين التحايا والهدايا،فتحت عنوان:"تحية لضوحية"كتب،يقول(٣):

(١) "ديوان وراء الغمام" – الشاعر: إبراهيم ناجى – ص (٣١٥) – ط: دار العودة – بيروت – ١٩٨٦م، والأبيات من بحر الخفيف.
(٢) "ديوان وراء الغمام" – الشاعر: إبراهيم ناجى – ص (٣) –، والأبيات من بحر الكامل.
(٣) مُقَطَّعة بعنوان:"تحية لضوحية" – ديوان ناجى– ص (٣٢١)، والأبيات من بحر الرجز .

إليْـــكِ يـــا "ضـــوحيَّتى" ∴ أبعـــــثُ بالتَّحيَّـــــة
تحيـــة مـــن قَلَمِـــى ∴ ومثلُهـــا مِـــنْ مُهْجَتِـــى
إنَّـــكِ كـــالزَّهْرَةِ فـــى ∴ جمالِهـــا والرِّقَّـــةِ
تَقبَّلِـــى مـــن روضـــةِ الأ ∴ شـــعارِ خـــزَّ زهـــرةِ
عبيرُهَـــا خـــواطِرِى ∴ وملؤُهَـــا محبَّتِـــى

**وتحت عنوان :"حُبَّان" كتب لها[1]:**

كرقَّـــةِ طبعـــكِ كالنَّسْـــمَةِ ∴ ومـــن شـــاطِىءِ البَحْـــرِ ضـــوحيَّتى
أَزُفُّ إليـــكِ جميـــلَ البيـــانِ ∴ وأُوجـــزُ حُبِّـــى فـــى لَفْظَـــةِ
أحبُّـــك حبـــيْن ..حـــبَّ ابنتـــى ∴ وحُبِّـــى لمـــا فيـــك مـــن رقـــة[2]

**فهو يهديها هذه الأبيات تعبيرًا عن حبه لها ليس فقط لأنها ابنتـــه، وإنَّمـــا أيضًا لجمالها ورقة طبعها.**

**وكذلك كتب مصطفى صادق الرافعى لابنته "وهيبة" تعبيرًا عن فرحه وسروره بها، ومن ذلك قوله[3]:**

وَلِى ابنة هِىَ معنى النفسِ فى نَظَرِى ∴ وحكمـــةُ الفِكْـــرِ والـــوحْىِ الـــذى أَجِـــدُ
صـــغيرة وعجيـــب أنْ يكـــونَ بهـــا ∴ قـــد زادَ فـــى كـــلِّ هـــذا العـــالَمِ العَـــدَدُ
"فيـــا وهيبـــةُ " إن يســـعَدْ ذوُوكِ فمِـــنْ ∴ نـــورٍ بعيْنَيْـــكِ يجلُـــو نجمَهـــم سَـــعِدُوا
للـــدهرِ شـــرع ومنـــه حكمـــة كُتِبَـــتْ ∴ علـــى القلـــوبِ فلـــمْ يجهـــلْ بهـــا أَحَـــدُ

---

(١) "ديوان وراء الغمام" – إبراهيم ناجى – ص (٣٢١)، والأبيات من بحر المتقارب.

(٢) بدا من هذا البيت تأثر"إبراهيم ناجى"بشعر"آدم" فيد "عمر بن عبدالعزيز"، وقوله لصاحبة له:

**أحبـــكِ حبـــيْنِ لـــى واحـــدٌ**
**وآخـــرُ أنَّـــكِ أهـــلٌ لـــذاكَ**

ومما يجدر ذكره أنَّ رابعة العدوية أدخلت تعديلاً على هذا البيـت وأبيـات بعـده، وصارت أمَّاً للشعر الصوفى كله.

ينظر:["تاريخ الأدب العباسى قضايا وفنون" – د/الريدى عبدالحفيظ عبدالرحمن ص(١٠٧) – الطبعة الثانية– مركز كتاب كلية البنات الأزهرية بأسيوط، والبيت من بحر المتقارب].

(٣) "ديوان الرافعى" – ج٣ ص (٦٠) – طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة – دون تاريخ، والأبيات والأبيات من بحر البسيط.

لا يصبحُ البيتُ روضًا للذين به ∴ ما لم يكُنْ فيه هذا الطَّائر الغردُ

**يرى الرافعى في ابنته مصدرًا لكل خير هو فيه، ففيها معنى نفسه وسعادة روحه ويقظة فكره، كما يراها مصدر خير للعالم، فرغم صغرها زاد بها عدد البشر، ومن نور عينيها تضىء النجوم، كما أنَّه يرى البيت روضة من الجنان ويرى الأبناء فيه طيورًا مغردة ليقرر حقيقة تحكيها الدنيا أنَّ البيوت لا ينعم بها أصحابها حين تخلو من زهرات القلوب وفلذات الأكباد.**

**ثم هو يصف نومها متمنيًا لها أحلامًا سعيدة، يقول(١):**

هفَتْ "أمُّ البنين" للإضطجاعِ ∴ تُراعِيهَا العنايةُ إذ تُرَاعِى
ونامَتْ تمسكُ الأجفانَ مَهْلاً ∴ وترسِلُهَا إشاراتِ الوداعِ
وهيبةُ وابتسام الحلمِ بادٍ ∴ على شَفَتَيْكِ هَلْ يدعوكِ داعِ

**يصور الرافعى ابنته وهى تفتح عينيها وتغمضهما تتأهب للنوم وَيَعُدُّ ذلك تحية وداع منها لانصرافها عنه إلى أن تستيقظ، على ما تنقله لنا هذه الصورة من ازدحام الواقع النفسى للشاعر بمشاعر الفرح والسرور، وإحساس الترقب لكل حال تكون عليها ابنته، فهو أيضًا يصف تبسمها في النوم وكأن أحدًا يناغيها ويدعوها لعالم الأحلام.**

**ومما أوحت البنوة نثرًا للخطاب الأدبى إلى الأبناء: ما كتبه المازنى(٢) تحت عنوان: "إلى ابنتى" تعبيرًا عن فرحه وسروره حين فاجأته في مكتبه تطوق عنقه بيديها، يقول(٣): «أحسُّ براحتيكِ الصغيرتين على كتفى فأديرُ وجهى إليك لأصبحَ على بستان وجهكِ، وأستمدُّ من عينيكِ ما أفتقرُ إليه من الجَلَد والشَّجاعة، وأرفعُ يَدىَّ فأطوقُكِ بذراعىَّ، وأضمك إلى صدرى، وألثم خدَّك الصابحِ وأمسحُ على**

---

(١) المرجع السابق ص (٦١)، والأبيات من بحر الوافر.

(٢) المازنى: إبراهيم محمد عبد القادر المازنى، ولد في (١٩) أغسطس عام (١٨٩٠م)، فى أصح الأقوال، وتدرج المازنى في التعليم وتدرجت معه موهبته الأدبية حتى أصبح أحد رواد النهضة الأدبية الحديثة في مصر والعالم العربى، وتوفى – رحمه الله تعالى– أيضًا في أغسطس عام (١٩٤٠م) . [أدب المازنى – رسالة ماجستير–الباحثة/ نعمات أحمد فؤاد – كلية الآداب– جامعة القاهرة].

(٣) "في الطريق"– إبراهيم عبد القادر المازن– ص(٦٤)– طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة.

شعرك المرسل على ظهرك وجانب محيَّاك الوضىء، وأتملَّى بحسنك، وأنشرُ في كهف صدرى المظلم نورَ البشْر والطلاقة، وألمحُ شفتيك الرقيقتين تختلجان، وتصافِحُ سمعى من ضحكاتِكِ العذبة موجات لينة،...ثم تخرجين بعد أن خلَّفت في صدرى انشراحًا، وفى قلبى رضًا، وفى روحى خفَّةً، وفى نفسى شُفُوفًا، وفى عقلى قوةً، وفى أملى بسْطَةً واتساعًا، وفى خيالى نشاطًا، فأضطجع مرتاحًا، وأغمضُ عينى القريرة بحبك ... ».

إنَّها مشاعر أب منقوشة على صفحة قلبه قسمات ابنته، ومرتسمة في لوح صدره حركاتها ومذخور في رأسه كل نظرة وابتسامة وتعبيسة وعولة ونهضة وعثرة وخطرة .. كل كلمة بل كل صوت، وكأن حياته كلها تمهيدًا لحياتها.

يرى المازنى فى وجه ابنته ورودًا وبساتين، وفى القرب منها أنسًا وسعادة، وقوة وشجاعة، ثم هو يستطرد في الوصف حتى ليرى حاله بعد أن غادرته منشرح الصدر، خفيف الروح يرى كل شىء جميلاً بسبب تلك اللحظات التى قضتها معه ابنته.

ومن بديع النثر في الخطاب الأدبى إلى الأبناء تعبيرًا عن الأمل والفرح والسرور كثير من النصوص التى ضمَّتها كتب"إلى ولدى "لأحمد أمين، و"رسائل إلى ابنتى"[١] لنعمات أحمد فؤاد[٢]، و"من والد إلى ولده" لحافظ عوض[٣]، ومما جاء فيه يخاطب ابنه:

---

(١) عرف العالم هذا الكتاب وعدَّته المنظمة العالمية والثقافة والعلوم اليونسكى واحد من أهم عشرة كتب في العالم في مجاله، واختارته كثير من وزارات التربية والتعليم العربية ضمن مناهجها.ينظر:["يوميات الأخبار" بقلم سلامه موسى – عدد ١٥/٤/١٩٥٦م].

(٢) نعمات أحمد فؤاد: ولدت بمغاغة بمحافظة المنيا عام ١٩٢٤م، وحفظت القرآن الكريم في طفولتها، تخرجت في كلية الآداب جامعة القاهرة، أعدت رسالتها في الماجستير عن أدب المازنى، وحصلت على الدكتوراة ممن جامعة القاهرة في الأدب وموضوعها:" النيل في الأدب العربى" عام ١٩٥٢م، شغلت عدة مناصب هامة وقامت بالتدريس بجامعات دول عديدة، لها أكثر من ثلاثين كتابًا مطبوعًا في الأدب والنقد والسياسة والدين والفن.ينظر:[ التكوين .حياة المفكرين والأدباء بأقلامهم – ص١٥٥ – ط : دار الهلال١٩٩٨م].

(٣) أحمد حافظ عوض (١٢٩٤-١٣٧٠هـ/١٨٧٧-١٩٥٠م)، كاتب مصرى من كبار الصحفيين، عمل مترجمًا عن الإنكليزية فكاتبًا في جريدة "المؤيد"، وأصدر مجلة "الآداب"، ثم

«لقد خُبَّرتُ العواطف على جميع درجاتها وأصنافها فلم أجدْ عاطفة أقوى تملكًا للنفس وتمسكًا بالحسّ من الحب الذى شعرت به نحوك منذ وُجدت إلى اليوم، وإن شئتُ أن أحاول وصف حبى لك فلا أستطيع أنْ أقول سوى إنَّه نوعٌ غريبٌ من الحب له معان وتصورات وصفات غير الحبِّ المعروف...»[١].

أما الدكتورة "نعمات أحمد فؤاد" فلعل النصفة تقتضى القول: إنَّ خطابها الأدبى إلى أبنائها ربما فاق كل خطاب في هذا الغرض، ذلك أنَّها عدَّت أبنائها الثمرة الحقيقية في حياتها والمصدر الأول لأدبها وتحدثت إليهم كثيرًا وأفردت لهذا الحديث كتبًا ورسائل ومقالات، ومما يدل على ذلك قولها في مقدمة كتاب "إلى ابنتى " تخاطب ابنتها "حنان":

«هذا كتابى أو كتابُكِ .. كثيرُهُ منكِ وقليلُهُ مِنِّى، بل هو كلُّه من وحيكِ ومعانيكِ .. فقبلكِ لم يكن قلمى يعرفُ طريقَهُ إلى يدى بهذه السُّهولة.. إنه نبعكِ تحدَّر في صدرى حنانًا وصفاءً، فعبَّ قلمى منه عَلَا بعد نَهل، وما ارتوى كقلبى وعينى وسمعى على كثرة العب وطول الرشيف ...»[٢] .

ثم تتحدث عن كتابها الثانى إلى ابنتها تقرر الفارق بين الكتابين تقول[٣]:

«أكتبُهُ بعد أنْ غدا لى بنتان لا واحدة، بشعور جديد.. عاطفتى متَّقدة ولكن رشيدة .. غامرة ولكنها أكثر خبرةً وأوضح رؤية وأبعدُ فكرًا وأنضجُ حياة ...».

أما خطابها تعبيرًا عن الفرح والسرور فمنه قولها[٤]:

« حنان: إنَّ بى رغبةً طاغيةً في التَّحدثِ إليكِ ، ولكنْ لم يمض على مولدكِ إلا أيام، فكيف أكلِّم منْ تشرقُ في المهد؟ سأسجِّلُ حديثى على الورق لتقرئيه بعد

---

"كوكب الشرق" يومية وفدية استمرت زهاء (٢٠) سنة، مرض فعطلها، وتوفى بالقاهرة.[معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م- كامل سلمان الجبورى ١٢٣/١].

(١) "من والد إلى ولده" – أحمد حافظ عوض بك– ص (٢)– ط:مكتبة ومطبعة الشعب– الأولى ١٩٢٣م.

(٢) – نقلاً عن مقدمة " رسائل إلى ابنتى" د/ نعمات أحمد فؤاد– ص (٧٢)– ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب – الأولى ٢٠٠٣م.

(٣) المرجع السابق ص (٨).

(٤) المرجع السابق ص (١٥).

سنين، فكم يطيبُ لى أن أسمعَ رأيكِ فيه، لقد أثرتِ خيالى يا ابنتى، فكثيرًا ما أسبقُ الأيامَ وأتخيلُكِ في ذكرى ميلادك الأولى تَتَألقين كزهرة السَّوسن، وقد أحطناك بقلوبنا نُلَقِّنك في ابتهاج كيف تُطفئين الشمعة، فتقلدين حركتنا بثغرِكِ الجميل في طرافةٍ تضحكُ القلبَ من فيضِ السُّرور وزهو الفرح ...» .

وعن ابنتها الثانية "فينان" تقول(١):

«طفلتِى بوجهها البدرىِّ نشيد يبدع الأناشيدَ .. موسيقا مرحة تتجوَّلُ في البيتِ حتى لتحسّ كلَّ شيءٍ فيه منغومًا حتى الجدران وقطع الأثاث، أدنو من مهدها في الصباح لأوقظُها فإذا بها تتباعثُ في دلال .. قلتُ في سرِّى: أنشى صغيرة، أغنية تحلو على الترديد ...» .

كما كان لابنها نصيب وافر من هذا الخطاب تقول تخاطبه(٢):

«ملأتَ حياتى مع أختيكَ يا بُنىّ ..أصبح لعُمْرى معنى، ولسعيى هدف، قد يزعج غيرى كرُّ الأيام ومرُّ الليالى، ولكنِّى أفرحُ بسير الزمن لأنَّه يُنميك، فكل يوم ينقضى ينقصُ من عمرى لكنَّهُ يمدُّ لك في النَّماء، فما أهنأ قلبى! .. ليت عُمرى كله يضافُ إلى سنينك لتعيشه أنتَ لى ولك يا حبيبى الصغير ... » .

بدا أنَّ أبناء "نعمات أحمد فؤاد" كان لهم الأثر الكبير في حياتها الإجتماعية، ومن ثم كان لهم أثر بالغ في أدبها، حيث شعورها بالبنوة العميقة والأحاسيس الغنية بألوان الفرح والسرور والعطف والحنان .. ألوان من المشاعر تبثها الأديبة في هذا الخطاب الحانى إلى فلذات الأكباد.

(١) من مقالها بعنوان: "رحيق العمر وعطر السنين" – جريدة الأهرام – عدد (٢٠٠٤/٣/٢٤م).
(٢) "رسائل إلى ابنتى" – ص (١٧).

# المبحث الثانى
# فى النصح والإرشاد

ومن الخطاب الأدبي إلي الأبناء وصايا النصح والإرشاد أملاً ورجاءً في المهد وبثًا هامسًا في الرشاد، فقد جرت العادة أنْ ينصح الآباء الأبناء لكن الأدباء منهم لا يكتفون بهذا النصح وإنما يطوفون بأبنائهم في أعماق الحياة يكتبون أحاسيسهم وهي عميقة ويصورون مشاعرهم وهي جمة غنية بالألوان عبر رسائل حب وعطف ونصح لا يغنى غناءها أحدٌ مهما أخلص الناصحون والأصدقاء.

وقد جاء خطاب الأدباء إلي الأبناء نصحًا بين من يبدي طريق الخير ليسلكهم فيه ومن يلقي الضوء علي طريق الشر ليأْمَنَهُ عليهم، ولعل من هذا قول شوقي يخاطب ابنته "أمينه" فيما ينفعها من "اللعب" وقد لاحظ انصرافها عن ألْعاب القتال والحرب مما يلعب به الأطفال[1]:

فقلتُ لها: أيُّها الملاكُ ∴ تُحبُّ السَّلامَ ولا أنِكرُ
ولكن قبلَك خابَ المسيحُ ∴ وباءَ بمنشوره القيصرُ
فلا ترج سلمًا من العالمين ∴ فإنَّ السِّباع كما تُفْطَرُ!
ومن يعدم الظفر بين الذئاب ∴ فإن الذئاب به تظفر!
فإن شئتَ تحيا حياة الكبار ∴ يؤمِّلُكَ الكلُّ، أو يحذرُ

يصور شوقي في ابنته ملاكًا ينشد السلم بين العالمين، ومن ثم يخشي عليها الضياع في دنيا لا تؤمن بحق للضعفاء، لكنه يبالغ في تصوير البشر سباعًا وذئابًا ويطلب إلي ابنته أنْ تمتلك أدوات الحيلة الكريمة في هذه الدنيا المحتدمة الخالية من كل معاني السلم، وعليها أنْ تتخلي عن طلب هذا المعاني فقد باء

(١) "الشوقيات" – ج٣ ص (١٠٣)، والأبيات من بحر المتقارب.

بالخيبه قبلها من هم علي الدنيا أكرم وأعز، فقد كان السلام دعوة المسيح، وكذلك كانت دعوة قيصر الرومان الذي لم يفلح في توحيد كلمة الكنائس المسيحية(١).

ومن يتتبع الخطاب الأدبى لدى أمير الشعراء إلي أبنائه يلحظ كثيرًا منه بغرض النصح والإرشاد، وقد ارتفع النصح والتحفيز لديه إلي حد دعاه لأن يمتدح نفسه، ويحط من قدر ما يتوقعه لولده "علي" ليحثه علي السعي والجد إدراكًا للمحامد والمجد، يقول تحت عنوان: "صاحب عهده"(٢):

رزقتُ صاحبَ عهدِه ∴ وتم لى النسلُ بعدِي
هم يحسدوني عليهِ ∴ ويغبطوني بسَعدِي
ولا أراني ونجلِي ∴ سنلتقى عندَ مجدِ
وسوف يعلمُ بيتي ∴ أنَّي أنا النسلُ وحدي
فيا "عليُّ" لا تلُمْنِي ∴ فما احتقارُك قصدِي
وأنتَ مني كروحِي ∴ وأنتَ مَنْ أنتَ عندِي
فإن أساءَكَ قولي ∴ كَذِّب أباك بوعْدِ

فلا شك أنَّ شوقيًا لم يردْ الحط من شأن ابنه، فهو من هو عنده حبًا وفرحا وغبطه، ولكن لعله حين أراد أنْ يحفز ولده ويحثه علي السعي والجد أراد أيضًا أنْ يعمي عنه عين الحسد، وفى قوله:" هم يحسدونى عليه" دليل على ذلك.

لكن شوقيًا حين يتمني لولده المجد ويطلب إليه السعي وبذل الجهد يتمني لوكان ذلك المجد بعيدًا عن مجال الأدب والكتابة، فهو ينصح ابنه بالانصراف عن هذا المجال، لما لقى فيه من العنت، يقول بمناسبة الذكري الثانية لمولده(٣):

(١) لعله عنى بالقيصر: الأمبراطور الروماني "انستاسيوس" الذي نفي إلي مصر، فعمل مع بطريركها علي نشر السلام والوحدة بين كنائس الشرق المتخاصمة لتكون في مواجهة الكنيسة الغربية، وقد نجح في ذلك حين قدَّم منشورًا يدعو للسلام والحرية قبلت به كل الكنائس الشرقية، ولكن بدا تاريخيًا أن ذلك كان سلامًا مؤقتًا. ينظر:(موسوعة تاريخ أقباط مصر): موقع: www.cop:chistory.org\new page

(٢) "الشوقيات" – ج٣ ص (٥٦)، والأبيات من بحر المجتث.

(٣) "الشوقيات" – ص (١٠٦)، والأبيات من بحر الرمل.

هـــــــــذه أوَّلُ خطـــــــــوةْ ∴ هـــــــــذه أوَّلُ كَبْـــــــــوَةْ
في طريقـــــــــي لِعَلِـــــــــيّ ∴ عنـــــهُ لـــــو يعقـــــلُ غُنـــــوةْ
يأخـــــذ العيشـــــةَ فيـــــه ∴ مُـــــرَّةً آنًـــــا، وحُلْـــــوَةْ
يـــــا علـــــي إن أنـــــت أوفيـــــ ∴ ت علـــــي سِـــــنِّ الفُتَّـــــوةْ
دافـــــعِ النَّـــــاس وزاحِـــــمْ ∴ وخُـــــذِ العـــــيشَ بقُـــــوَّةْ
لاتقُـــــلْ: كـــــانَ أبـــــي! ∴ إيَّـــــاكَ أن تَحـــــذُوا حَـــــذْوَهْ

**يبرز في هذه الأبيات- من حيث الفن- استخدام شوقي لأسلوب الإنشاء بالأمر والنهي والنداء ملائمًا لغرض النصح والإرشاد، فالأبيات تصور نصائح شوقى لأولاده بالتسلح بأدوات الشجاعة والقوة، فهو ينصح ابنه بأن يشق طريقه في الحياه دون أنْ يركن لمجد والده وبعيدًا عن مجاله ثم هو يذكر أسباب ذلك في نهاية قصيدته، يقول(١):**

أنـــا لم أَغـــنمْ مـــن النَّـــا ∴ س ســـوى "فنجـــان" قَهْـــوَةْ
أنـــا لم أُجْـــزَ عـــن الكُتـــبِ ∴ مـــن القـــرَّاءِ حُظْـــوَةْ!
أنـــا لم أُجْـــزَ عـــن المـــدحِ ∴ مـــن الأمـــلاكِ فَـــرْوَةْ!
ضـــيَّع الكـــلُّ حيـــائِى ∴ وعفَـــافِى، والمُـــرُوَةْ!

**يري أمير الشعراء أنَّ مجده من الأدب كان فقط معنويًا، ويري أنَّ ما عاد عليه من الأدب والشعر لا يساوي "فنجان قهوة"، وهو لا يرضي لابنه هذا المصير ويتمني أنْ لوْ اجتمعت لأولاده أطراف المجد المادية والمعنوية، وقد بدا ما أفادته صيغة تكرار نفي الفعل بـ (لم) بعد ضمير المتكلم (انا) من الجزم وتأكيد معني النفي وإلحاحه علي فكر الشاعر، فضلاً عما أفاده التكرار من توقيع صوتي أضفي علي الأبيات موسيقا خاصة تسهم فى تأكيد الفكرة المتسلطه علي وجدان الشاعر.**

**وقد شارك شوقيًا في هذه الفكرة الشاعر "أحمد سحنون"، فهو أيضًا يوجه ابنه "رجاء" بألا يعمل في مجال الأدب والفن مخافة الفقر، يقول(٢):**

---

(١) القصيدة نفسها.

(٢) من قصيدة "أنا وابناى" – ديوان أحمد سحنون – ص (٦٣)،والأبيات من بحر المتقارب.

ألا ليـــت شـــعرى أتمتـــدُ بـــى ∴ حيـــاتِى فـــأجنى غـــرسَ يَـــدَيَّا؟
وأشـــهدُ طفلِـــى يَيْنـــعُ ثُـــمَّ ∴ يشـــبُّ ويصـــبحُ شـــهمًا أبيًّـــا
أبـــوكَ امـــرؤ مـــن رجـــالِ الكـــلامِ ∴ فكـــنْ أنـــتَ يـــا بنـــى امـــرءًا عمليًّـــا
فمـــا احتقـــرَ النـــاسُ إلا الأديـــبَ ∴ ولا احـــترمَ النـــاسُ إلا الثَّريَّـــا

**فهو يتمني أنْ يمتد عمره ليسعد بما يضاف إلي عمر ابنه من سنوات حتي يصير شابًا يتمتع بحميد الخصال، ثم هو ينصحه بالعمل بعيدًا عن مجال أبيه، والحق أن هذه النصيحة لم تقتصرْ علي "شوقي" و"سحنون" بين الشعراء، وإنَّما هي نصيحه شائعة في الخطاب الأدبي إلي الأبناء، لما يخشي الأدباء علي أبنائهم مما لاقوه من عنت ومشقة وتجاهل من يقومون علي أمر الثقافة والأدب حين لا يعرف الفضل لأهله ذووه.**

**وفي موضع آخر وبأسلوب إنشائي بين الأمر والنهي يخاطب الشاعر ابنه ناصحًا وموصيًا[1]:**

وكُـــنْ إذا غبـــتُ يومًـــا ∴ كـــأعظمِ الآبَـــاءِ
ولا تضـــيقَنَّ صـــدْرًا ∴ بـــالهَمِّ والبرحـــاءِ
وعـــشْ "لنســـرينَ" واسْـــلمْ ∴ علـــى المَـــدى "لعَلَـــاءِ"
واحـــرُس "نبـــيلاً" لينجُـــو ∴ مـــن الأذى والبَلَـــاءِ

**ما أكثر ما يتمني الآباء أن يخلفهم أبناؤهم ويملأون فراغاً ينشأ حين تفرغ منهم الديار، أو تخلوا منهم الحياة، ليتحول الابن البار- بفعل الزمن- إلي أب كريم.**

**ومن الخطاب الشعري إلي الأبناء نصحًا وارشادًا قول "مصطفي صادق الرافعي" يخاطب "وهيبته"[2]:**

نظـرتُ إليـكِ فـى مـوْجِ الأَمـانِى ∴ كأنَّـكِ درة لمعَـتْ بقـاعِ
فـإن بلغَـتْ بـكِ الـدنيا فسـيرِى ∴ إلى العليـاءِ مـنْ غـير انقطـاعِ

(١) قصيدة "إلى ولدى رجاء" – أحمد سحنون – ص (١٧٨)، والأبيات من بحر المجتث.
(٢). قصيدة "أحلام وهيبة" – ديوان الرافعى –ج٤ ص (٦٣)، والأبيات من بحر الوافر.

فـــإنَّ الـــنَّفْسَ مثـــلَ العـــينِ تسْـــمو ∴ إذا ضـــــربت بمنطَلَـــــقِ البقـــــاعِ

**إنَّها عميقة تلك الأمواج التي نظر فيها، فالأماني بعيدة حـين تكـون لطفـل صغير، وعلي ذلك يطلب الرافعي إلي ابنته إذا كبرت أنْ تجدَّ في السعي وتجتهـد في العمل ، فبقدر السعي والجد تتحقق الأماني ويكون المجد.**

**أما خطاب النصح والإرشاد نثراً فيأتي في مقدمته ما حكاه القـرآن الكـريم حكاية عن "لقمان الحكيم"[1] قولـه لابنـه: « ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[2]، وقوله – تعالي–: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾[3]».**

**حين تكون الوصية للإبن من أبيه أشفق الناس وأرفقهم به، وأحب النـاس وأقربهم إليه، حقيق بأن يمنحه خلاصة علمه بالحياه، فحين يخبر القرآن الكـريم عن وصايا لقمان الحكيم لابنه يأتي في مقدمتها: أنْ يعبد الله – عز وجل– وحده لا يشرك به شيئًا، وأنْ يعمل صالحًا فالمظلمه أو الخطيئة مهما خبت أو صغرت لا تخفى على الله – عزوجل – وهو وحده الذي يجازي عليها، وأنْ يقـيم الصـلاة بحدودها، وأنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإن ناله – علي إثر ذلك– من الناس أذى يصبر ويحتسب، وأنْ يلقَ الناس بوجه طلق ولا يعرض عنهم بوجهه أو يُعجب بنفسه متكبرًا جبارًا فيبغضة الله – تعالي–، وأنْ يكون مشيه وسطًا بين**

---

(١) لقمان الحكيم : هو لقمان بن ياعور بن أخت أيوب، أو بن خالته، وهو من أسوان بمصـر، وقد عاصر داوود، أخذ منه العلم وقد أعطاه الله الحكمة ، وليس في القرآن الكـريم آيـة أو إشـارة تمكـن مـن تحديـد عصـره _ [شـبكة المعلومـات الدوليـة "الانترنـت" موقع: whttp://ar.wikipedia.org].

(٢) من الآية (١٣)، سورة لقمان.

(٣) الآيات ( ١٦:١٩)، سورة لقمان .

السرعة والبطء، ولا يرفع صوته بالكلام من غير فائدة فيتشبه بالحمار، وقد أمر النَّبيُّ-ﷺ- بالتعوذ من الشيطان عند سماع صوته[١].

وفي هذا النص المعجز تتأكد من حيث الفن مناسبة الأسلوب الإنشائى لغرض النصح والإرشاد، حيث الأمر بفعل الخيرات وترك المنكرات، كما يبدو ذلك أيضًا في اقتران كل وصية بالنتيجة المترتبة علي مخالفتها، ولا تخفي دلالة ذلك علي بلوغ عموم النفع.

ومن بديع النثر الأدبي القديم: ما جاء عن أوس بن حارثة[٢] يخاطب ابنة مالك، ويودعه خلاصة تجربته في الحياه وصيةً ونصحًا وإرشادًا، يقول: "يا مالك: المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد ولا التبلد، واعلم أن القبر خير من الفقر، وشر شارب المشتف، وأقبح طاعم المقتَف، والدهر يومان يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر فكلاهما سينحسر..."[٣].

بدا تميز الحديث بالهدوء والأناة والخلو من الحماسة رغم مرارة العاطفة، وصدق النفس، وإخلاص الرأي لعل قائله يجد في ابنه أذنًا تسمع، وعقلاً يعى ويقبل، ونفسًا تتأثر، فهو يرضي لابنة الموت علي أن يقبل الدنية، ويوصيه بالتجلد والصبر، والقناعة والاقتصاد، ولاشك أنَّها من كريم الخصال، وجميل الصفات التي تمنينا لو وجدت لها وقعًا وأثرًا في كل الأبناء.

---

(١) جاء أن النبى -ﷺ- قال:{إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم، فإنه رأى شيطانًا} [أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء..- باب استحباب الدعاء عند صياح الديك- ج٤ ص ٢٠٩٢].

(٢) أوس بن حارثة : أحد شعراء بني كلب في الجاهلية، وهي إحدى جماجم العرب، وله أبيات في حرب بين بعض بطون كلب يوم نهادة حيث اجتمعت بنو عامر بن عوف وبنو عبد الله بن كنانة وأحلافهم علي بني كنانة وأحلافها وانتصرت عليهم بنو كنانة في ذلك اليوم. شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) موقع/ http://rewech.com .

(٣) "تاريخ الأدب العربي" _ أحمد حسن الزيات- ص (٣٤) – ط: دار الثقافة بيروت – بدون تاريخ.

ومن حيث الفن بدا ما أفاده المزج بين الأسلوبين الخبري والإنشائي في الوصيه من تكثيف التفاعل والقضاء علي الرتابة والنمطيه التي قد تتسرب إلي أي من الأسلوبين حال إيثاره.

ومما اشتهر أمره في ذلك نص الأعرابية " أمامة بنت الحارث"(١) تنصح ابنتها توصيها في ليلة عرسها تقول: « اي بنية: إنَّ الوصيَّه لو تُركت لفضل أدب تركت لذلك منك، ولكنَّها تذكره للغافل، ولو أنَّ امرأة استغنت عن الزَّواج لغني أبويها أو شده حاجتهما إليها لكنت أغني النَّاس ولكن النِّساء للرَّجال خلقن، ولهنَّ خلق الرَّجال..أي بنيه إنَّك تركت الجو الذي منة خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت إلي وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فاحملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا: أما الأولي والثانية: فصحبته بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثه والرابعة: فالتعهد لموقع عينيه وأنفه فلا تقع عينه منك علي قبيح ولايشم منك إلا أطيب ريح، أما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن حراره الجوع ملهبه، وتنغيص النوم مغضبه، وأما السابعة والثامنة: فالإحتراث بماله، والإرعاء علي حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمرًا ولا تفشين له سرًا، فإنك إن خالفت أمره أوعزت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره، ثم إياكِ والفرح بين يديه إن كان مهتما، والكآبة إن كان فرحًا، واعملي أنك لا تصلين إلي ما تحبين حتي تؤثري رضاه علي رضاك وهواه علي هواك فيما أحبب أو كرهت، والله يخير لك»(٢).

(١) أمامه بنت الحارث الشيبانية: فصيحه نبيلة، جاهلية، كانت زوجة عوف بن محلم الشيباني. لها وصيه تعد من أفضل ما قيل في موضوعها أوصت بها ابنة لها خطبها ملك كندة الحارث بن عمرو . [الأعلام ٢/١١].

(٢) "مجمع الأمثال" – أحمد بن محمد الميدانى النيسابورى– ج٢ ص (١٤٣)– ط: المطبعة الخيرية – مصر١٨٩٣م/١٣١٠هـ.

لا شك أنَّها تجربه أُم حكيمه فيها من رحيق العمر وعطر السنين ما يحمل علي السعاده ويدعو إلي الخير، ليت كل أُمٍّ تودع قلب ابنتها هذه الخصال، ليت كل بيت يربي أبناءه عليها، حين يري الأبناء واقعًا عمليًا وتجربه حيه في الأبوين وكل منهما يعطي حق الآخر.

وفي هذا النص أرادت "أمامه بنت الحارث" لابنتها أن تكون زوجة مثاليه ترتفع عن معاني الأنانيه إلي معاني البذل والعطاء، تشغل من زوجها مكان الشريك والرفيق والسمير، ونبع الحنان الذي يروي القلوب ويصل الأرواح، تشرق بالنظافه وتنفح بالطيب ..تحفظ أولادها وبيتها.. تنهض وتبني وتعمر فتبعث الحياه مهما اشتدت الريح أو أقبل الظلام.

ولعل اكثر ما يأخذ النظر– من جهة الفن– تلك المقدمة التي مهدت بها الأُم لوصاياها فلم تفاجئ ابنتها وإنمَّا ألانت لها الجانب وأفاضت عليها من المديح ما يطمئن قلبها ويدفعها إلى حسن الاستماع، ولا تخفي دلالة ذلك علي خبرة "أمامه" وحنكتها ونضوج فكرها، وسداد عقلها، وسلامة تجربتها في الحياة.

وإذا كان الخطاب الأدبي إلى الأبناء قد وجد في النثر الحديث أرضًا خصبةً وسهلاً ممهدًا فقد جاء أكثره نصحًا وإرشادًا، ومن بديع ذلك ما جاء عن الشاعرة "جليلة رضا" تنصح ابنتها تقول:[1]«في تلك الليله كنت ملأى بالإيمان، قلت لابنتي أشياء كثيرة كأننا اختان، قلت لها: إنَّ الله رحمه وخير وغفران، والإيمان أكبر شهادة ينالها إنسان ،قلت لها: إنَّ كلَّ شيءٍ في هذا العالم زائف عدا حب الله والوطن والناس..إنَّ الكون المحب يملأ رحم الأرض بأجنة تغدوا على المدى فصولا.. إنَّه يلقن الأرض منذ الأزل دروسًا في العدل والمساواة والحنان...».

في بلاغه الأسلوب الخبري واللغة الشاعره توجه "جليلة رضا" ابنتها نحو حب الله والخير والناس.. أسلوب رفيع في النصح يتلائم مع روح شاعرة لأم حنون تودع ابنتها بعطفها من معارفها في الحياة وقد أسهمت عاطفتها الصادقه

(١) "صفحات من حياتى" – جليلة رضا – ص (١٢٧).

فى اختيار هذه المعانى النبيلة، والألفاظ المعبرة التي تنحدر في هدوء مع إيقاع موسيقى اكتسبه النص من تلك السجعات غير المتكلفة التي كادت الأديبة تلتزمها.

ومن خطاب النصح والإرشاد أيضًا ما جاء عن "نعمات أحمد فؤاد" لأبنائها وهي رسائل أدبية متعددة الموضوعات نحو الدين والعمل والمجتمع، تختلف باختلاف المراحل العمرية لأبنائها ومن ذلك خطابها لابنتها في طفولتها[1]:«حنان: إننا لم نختر لك هذا الاسم ليكون تمييزًا لك فحسب كما جرت العادة في الأسماء، بل إنَّنَا أردنَا باسمك- وهو صفة إنسانية كريمة - أنْ يكون لكِ طابعًا يتوج جلاله أعمالكِ فتسمو، ويتركُ أثره في نفسكِ فتشفى، ويسري إلى قلبك فيرق ويحنو، إنَّ اسمك يا ابنتى جماع الصفات الطيبة في الإنسان، فالذي يحنو يمنح ولا يسلب، ويعطف ولا يقسو، ويلين ولا يجفو، وحسب الإنسان أنْ تتكيف شخصيته على هذا النمط الرفيع لتلتقى القلوب على محبته...».

تخاطب الأديبة ابنتها "حنان" وترجو أنْ يكون لها من اسمها نصيب تهبه من قلبها للآخرين دون انتظار الجزاء، ففعل الخير في ذاته يحمل الجزاء بما يضفيه على فاعله من السعادة وراحة الضمير، واجتماع الناس علي محبته ولاشك أنَّ هذا جزاء يرتفع بالإنسانية إلى أوج رفيع يسمو على كل جزاء.

ومن النصح والإرشاد أيضًا خطابها لابنتها في سن الشباب توجهها نحو العمل[2]:« اعملي يا ابنتي، فإنَّه لا يستنكفُ من العمل إلا عاجز اليد أو خامل الطبع أو صغير الهمة أو محدود الذكاء، فالدنيا مدينة بعلومها وفنونها وحضارتها للعاملين الطامحين، اعملي يا ابنتي، غنية أو فقيرة، لتعرفي معنى العمل والأمل، الهدف يتحقق فيولد من جديد.. إنَّ مجتمع الوظائف يا ابنتي بؤرة نفاق وتلون وصغائر وتسول أخلاقى، وكم يرهق إحساس الكريم أنْ يضطهده حقير، لأنَّه لم

(١) " رسائل إلى ابنتى" – ص (١٣).
(٢) من مقالها بعنوان " إلي ابنتي" – جريده الأهرام – عدد (١٩٥٣/٧/٢٣م).

يُرِقْ كرامته على بابه، أما العمل الحر فميدان رحب معطاء للشخصية الخلَّاقة والكفاءة القادرة والكرامة التي لا تهون...».

توجه الأديبة ابنتها نحو العمل دون النظر إلى إحتياجها لعائده، وإنَّما تنظر للعمل بما ينمى من ذاتية صاحبه ويمنحه من قيمة ومعرفة، لاسيما حين يتحلل الإنسان من العمل الوظيفى الذي تراه الأديبة قيدًا قد يهدر القيمة ويعطل الموهبة.

وما أكثر ما كتبت الأديبة لابنائها نصحًا وإرشادًا بل وما أكثر ما كتب الأدباء أحاديث خاصة لأبنائهم ليتها في هذا الغرض تكون خطابًا عامًا لكل الأبناء غرسًا ونماءً ورواءً.

ومما يجدر ذكره تتمة لهذا الفصل، بل لهذه الدراسة، أنَّه إذا كان الأدباء في خطابهم الأدبي إلى أبنائهم بين مَنْ يكتبُ فرحًا وأملاً ورجاءً، ومن يكتبه حزنًا وألمًا ورثاءً فإنَّ منهم من قد تجتمع له هذه المشاعر في ثنائية يمتزج فيها الألم بالأمل، والفرح بالحزن، ولعل أمير الشعراء يأتى في مقدمة هؤلاء الأدباء، لا سيما فى مقطعته بعنوان "الزمن الأخير"، وفيها يخاطب ابنه "على" بعد مولده(١).

علـيٌّ، لـو استشـرْتَ أبـاكَ قـبْلاً ∴ فـإن الخـيرَ حـظُّ المستشِـيرِ
إذا لعلمـتَ أنَّـا فـى غِنـاءٍ ∴ وإنْ نَـكُ مـن لقائِـكَ فـى سُـرورِ
ومـا ضِـقْنا بمقـدِمِكَ المفـدَّى ∴ ولكـنْ جئـتَ فـى الـزَّمَنِ الأخـيرِ

بدا أنَّ شوقيًا رزق ابنه علي كهوله بعد أنْ تقدم به العمر، وغير خفى كيف مزج مشاعر فرحه وسروره لمولد ابنه وقدومه إلي الدنيا بمشاعر الأسي والألم لتأخر هذا القدوم، فهو يخشي أنْ يدركه الأجل قبل أنْ يُتم ما يتمناه للحبيب الصغير.

ولا أدلَّ علي هذا المزج وثنائيه المشاعر لدي "شوقي" في هذه الأبيات من عدالة تقسيم معاني الألم والأمل بين أشطار الأبيات وكأن أعجاز الأبيات ترد علي الصدور.

(١) "الشوقيات" – ج٣ ص (٩٥)، سبق ذكرها فى هامش صـ٥٩

ويبدو أنَّ امير الشعراء تعلق وجدانه بثنائية الألم والأمل حتى فرضها عليه القدر حين كان مولد ابنته "أمينه" في اليوم نفسه بل وربما فى الساعة نفسها التى شهدت وفاة والده، ونراه يصور هذا المشهد في قوله(١):

يـــا ليلـــةً سمَّيتُهـــا ليلَتِـــى ∴ لأنَّهـــا بالنَّـــاس مـــا مـــرَّتِ
أذكرُهَـــا، والمـــوتُ فـــى ذِكْرِهـــا ∴ علـــى ســـبيلِ البَـــثِّ والعـــبرةِ
نبهنـــى المقـــدورُ فـــى جنحهـــا ∴ وكنـــتُ بـــين النـــومِ واليقْظَـــةِ
المـــوتُ عجـــلانُ إلى والـــدِى ∴ والوضـــعُ مســـتعصٍ علـــى زوجَتِـــى
هـــذا فتـــىً يُبْكـــى علـــى مثلِـــهِ ∴ وهـــذه فـــى أوَّلِ النشْـــأَةِ
وتلـــكَ فـــى مصـــرَ علـــى حالِهـــا ∴ وذاكَ رهـــنُ المـــوتِ والغربـــةِ
والقلـــبُ مـــا بينهمـــا حـــائر ∴ مـــن بلـــدةٍ أسْـــرى إلى بلـــدَةِ
حتـــى بَـــدَ الصُّـــبح، فـــولَّى أبـــى ∴ وأقبلَـــتْ بعـــد العنـــاءِ ابنتِـــى
فقلـــتُ أحكامُـــكَ حِرنـــا لهـــا ∴ يـــا مخـــرجَ الحـــىَّ مـــن الميِّـــت

يُري شوقى في هذه الأبيات وتنازع قلبه المشاعر المتقابلة بين ما يحمله من ألم وحزن لمشهد وفاة والده، وبين ما يتهلله من فرح وهناءات لمولد ابنته، ولعل أكثر ما يؤكد اختلاط مشاعره ما تحمله الأبيات من معان التقابل بين ثنائيات «النوم واليقظة، والموت العجلان، والوضع المستعصي، والحي والميت، وولي وأقبل»، ولاشك فيما اسهمته هذه المعاني من تعميق الدلالة وتكثيف معنى التقابل وإظهار اتساع المفارقة وعمق الاختلاف بين الحالين.

وممن اجتمعت له مشاعر الألم والأمل "نعمات أحمد فؤاد" في قولها تخاطب ابنتها(٢):«إلي القمة يا ابنتي، ولكن لا يغرنَّك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعرًا، ولا يأخذنَّك صوت القابعين عند السفح ينفسون علي الصاعدين نجاحهم، وحاذرى فالقمم لها وهج وبريق ولكنَّه بفعل الضوء المسلط من الشمس التى تغطى هذه القمم.. كم هى

(١) قصيدة بعنوان "يا ليلة" – "الشوقيات" – ص (٩٧)، والأبيات من بحر الرجز.
(٢) " رسائل إلى ابنتى"– ص (٧٢).

قاسية الوحدة هناك، والبرودة والخوف.. خوف الإنحدار والمنافسة وخوف السقوط، ومع هذا ستظل القمة أملاً وسيلته العمل والعرق والمبادئ القويمة...».

فقد أملت على الأديبة مشاعر الأمل والرجاء أنْ توصي ابنتها بمحاولة الوصول إلى القمة رفعة ومكانة وعملاً، وفي الوقت نفسه تملى عليها مشاعر الألم والخوف تحذير ابنتها مما قد تتعرض له جرَّاء الوصول إلى هذه القمة من حُمَّى المنافسة وما يتفجر عنها من أحقاد وضغائن، وكذلك مما قد يتسرب إلى نفسها من غرور أو قعود عن الكفاح فتغدو قمة مؤلمة ليس لأم أنْ تتمناها لابتنها، وغير خفي ما أسهمته تلك المفارقة بين الألم والأمل فى عذوبة النص وبلوغ معانيه.

* * *

# خاتمة

الحمد لله الذي تتحقق بعونه الغايات، وبنعمته تتم الصالحات، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن والاه.

وبعد،،

ها قد انتهت هذه الدراسة وبقى الختام تسجيلاً لبعض النتائج والتوصيات التي تمخَّضت عنها:

يبرز في هذه الدراسة ما تلهمه عاطفة "البنوة" للأديب من أيات رائعات فى الألم والأمل، تصور على الصفحات مشاعر وجدانات توحى معانى جمة وعميقة، وأساليب فنية رائعة وصادقة، تؤكد أنَّ أغلى ما تتملّاه العيون، وأغنى ما تعيشه الأرواح هى تلك الأوقات التى نقضيها مع فلذات الأكباد وزهرات القلوب.

تؤكد هذه الدراسة أنَّ الأدباء أكثر النَّاس تأثرًا بأسباب الانفعال، فالآلام وما تستدعيه من أنين تنقلب لديهم وجعًا شديدًا ولهفًا وعويلاً، والآمال بما تبعثه من إشراقة وسعادة تتحول لديهم إلى آيات وأغنيات من البهجة والفرح، لا سيما حين تتعلق هذه الانفعالات بالأبناء فتكون غذاءً أدبيًا شهيًا ومائدةً عامرة بالمعانى والأفكار، وحافلة بصور التعبير والألفاظ.

كما تؤكد هذه الدراسة أنَّ الخطاب الأدبى إلى الأبناء يأتى فى أعلى مظاهر الصدق الفنى؛ لأنَّ الأبناء فيه هم بؤرة تجربة الأديب المستأثرين بمشاعره، وغير خفى دلالة الخطاب على قرب المخاطب وحضوره فى نفس الأديب، ومن شأن ذلك أنْ يجعل الأدب ثريًا وجذابًا لا سيَّما حين يُراد بصدق العاطفة أنْ تنبعث عن سبب صحيح غير زائفٍ ولا مصنوع.

رغم ما يكون للمرأة من النصيب الأوفى من عاطفَتى البنوة والأمومة إلا أنَّ خطابها الأدبي إلى الأبناء لا يعدُّ غزيرًا لا سيَّما حين يُقاس بما كتبه الرَّجل، وربما ذلك يأتى تبعًا لتأخر المرأة فى كتابة جل ألوان الأدب، فيبدو أنَّها لاتزال تكتب بنفس مغلقة لم تتخلَّصْ بعد من شعور خاطئ بالدونية وقهر المجتمع، وتوصي هذه الدراسة المرأة بالتخلص من هذا الشعور، والتوجه نحو ألوان الأدب إذ لايزال يبقى أمامها الكثير تقدمه فى عالم الأدب لتلحق بركب الرجل.

ومن حيث الفن تعد "وحدة الموضوع" هى أهم ما يمتاز به الخطاب الأدبى إلى الأبناء لا سيَّما في جانب الألم، حيث غرض الرثاء وما يتصل به من بكاء وتفجع وعزاء، ولعل أكثر ما أسهم في ذلك مجىء هذا الخطاب في صورة مقطعات لا تتلائم مع تعدد الموضوعات، وكذلك نفس الأديب المتألمة ووجدانه الحزين وقد فرغ من كلِّ شيءٍ سوى البكاء على الرَّاحل الحبيب.

ومن جهه الفن أيضًا تُبرز هذه الدراسة أسلوب الانشاء قسيماً ظاهراً لأسلوب الخبر فى الخطاب الأدبى إلى الأبناء لا سيَّما أساليب النداء والأمر والاستفهام، بما لها من أبعاد وجدانية ودور بارز فى الدِّلالة، وقدرة على تكثيف مستويات البث الجمالى في النصوص، وكذلك يبرز استخدام الأدباء في مخاطبة أبنائهم لغةً ومفرداتٍ وتراكيب سهلة ميسورة بعيدة عن التعقيد بما يتلائم مع هذا الخطاب الصادر عن عفوية المشاعر وبساطة الأحاسيس.

كما يبدو واضحًا اهتمام الأدباء في خطابهم الأدبى لأبنائهم ببنية الموسيقا وبعض أنواع التوقيع الصوتي لا على أنَّها لون من التطريب وإنَّما أيضًا لإثراء النص وتعميق الدلالة.

وأخيرًا تشرق هذه الدراسة على آفاق أوسع أمام الدَّارسين بموضوعات أدبية ربما لم تُسلطْ عليها الأضواء مثل الخطاب الأدبى إلى الآباء والأمهات والأزواج والزوجات وغير ذلك مما قد يقفُ فيه الدَّارس على قيمٍ ومعانٍ جديدةٍ لم تخضعْ للدَّراسة أو تُحط ببيان.

كما توصى الدراسة بتوسيع دائرة الخطاب الأدبى إلى الأبناء ليخاطب الأديب فى أبنائه كل الأبناء صفاءً ونماءً، ونصحًا، وإرشادًا، وحَثًّا على الجد والسعى فبقدرهما تتحقق الأمانى، وعندهما يكون المجد.

والحمد لله أولاً وآخرا

الباحث

# فهرس المصادر والمراجع


- " القرآن الكريم" – كتاب الله – تعالى–.

**أولاً: الكتب المطبوعة:**

– " الأعلام" – خيرالدين الزركلى – ط: دار العلم للملايين – الخامسة عشر ٢٠٠٢م.

– " بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح" – عبد المتعال الصعيدى – ط: مكتبة الآداب – دون تاريخ.

– "تاريخ الأدب العباسى قضايا وفنون" – د. الريدى عبد الحفيظ عبد الرحمن – ط: مركز كتاب كلية البنات الأزهرية بأسيوط.

– "تاريخ الأدب العربى" – أحمد حسن الزيات – ط: دار الثقافة – بيروت – دون تاريخ.

– " تاريخ الأدب في العصر الجاهلى" – د. أحمد منصور نفادى – ط: مركز كتاب كلية اللغة العربية بأسيوط ١٩٩٢م.

– "تكملة معجم المؤلفين" – محمد خير الدين رمضان – ط: دار ابن حزم للطباعة – الأولى ١٩٩٧م.

– "جواهر البلاغة" – السيد أحمد الهاشمى – ط: دار الفكر –القاهرة –١٩٩٤م.

- "رثاء الأبناء في الشعر العربى" – د. مخيمر صالح موسى – ط: مكتبة المنار– الأردن – الأولى –دون تاريخ.
- "رسائل إلى ابنتى" – نعمات أحمد فؤاد – ط: الهيئة العامة للكتاب – صنعاء – الأولى ٢٠٠٣م.
- "صحيح البخارى" – الإمام الشيخ محمد بن اسماعيل على البخارى –ط:إحياء الكتب العربية – القاهرة – دون تاريخ.
- "صفحات من حياتى" – جليلة رضا – ط: دار الهلال – ١٩٨٦م.
- "العقد الفريد" – ابن عبد ربه – شرح وضبط: أحمد أمين وآخرين – ط: لجنة التأليف والنشر بالقاهرة – ١٩٦٩م.
- " فن الشعر" – أرسطو طاليس – ترجمة أحمد عبد الرحمن بدوى – ط: دار الثقافة – بيروت ١٩٧٣م.
- "في الطريق" – إبراهيم عبد القادر المازنى – ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة –دون تاريخ.
- " فيض الخاطر" – أحمد أمين – ط: مكتبة النهضة المصرية – الثالثة ١٩٤٦.
- "قمم أدبية" – نعمات أحمد فؤاد – ط: عالم الكتب ١٩٨٥م.
- "لسان العرب " – محمد بن مكرم بن منظور – ط: دار صادر – بيروت– دون تاريخ.
- "المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر" – ابن الأثير– ط: دار نهضة مصر ١٩٧٣م.
- "مجمع الأمثال" – أحمد محمد الميدانى النيسابورى– ط: المطبعة الخيرية – مصر ١٣١٠هـ/١٨٩٣م.
- " المختار" – الشيخ عبدالعزيز البشرى – ط: دار المعارف – مصر – دون تاريخ.
- " المرأة في الشعر الجاهلى" – د. أحمد الحوفى – ط: مكتبة نهضة مصر – الفجالة ١٩٥٤م.

- "معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م" – كامل سلمان الجبورى – ط: دار الكتب العلمية –بيروت الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- "معجم البلدان" – الشيخ الإمام ياقوت الحموى – ط: دار صادر – بيروت – دون تاريخ.
- "معجم تراجم الشعراء الكبير" – د. يحى مراد – ط: دار الحديث – القاهرة- ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- " من والد إلى ولده" – أحمد حافظ عوض بك – ط: مكتبة ومطبعة الشعب – الأولى ١٩٢٣م.
- "موسيقا الشعر العربى" – د. حسنى عبد الجليل- ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م.
- " النظرات" – مصطفى لطفى المنفلوطى – ط: دار الثقافة – بيروت- دون تاريخ.
- "النقد الأدبى الحديث" – د. محمد غنيمى هلال – ط: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٤م.
- " وحى الرسالة" – أحمد حسن الزيات – ط: دار نهضة مصر للطبع والنشر – الفجالة – الثامنة –دون تاريخ.
- " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " – ابن خُلَّكان – تحقيق: د/ إحسان عباس – ط: دار صادر – بيروت ١٩٨٧م.

**ثانيًا: الدواوين والمجموعات الشعرية:**

- " ديوان ابن الرومى " – لأبى الحسن على بن العباس بن جريح – تحقيق: د. حسين نصار – ط: دار صادر – بيروت – دون تاريخ .
- " ديوان ابن معصوم " – على بن أحمد بن معصوم – تحقيق: شاكر هادى شكر – ط: مكتبة النهضة العربية – دون تاريخ.
- " ديوان البارودى" – محمود سامى البارودى باشا – ضبطه وصححه: على الجارم بك – ومحمد شفيق معروف – ط : دار العودة ١٩٩٨م.

- " ديوان الحماسة " – لأبى تمام – تحقيق: د. عبد المنعم أحمد صالح – ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر– الأولى ١٩٩٦م.
- " ديوان حلية الطراز " – عائشة التيمورية – ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م.
- " ديوان الرافعى " – مصطفى صادق الرافعى – ط: مكتبة الإيمان بالمنصورة – دون تاريخ .
- " ديوان رامى " – للشاعر أحمد رامى– ط: دار الشروق – الأولى ٢٠٠٠م.
- " ديوان "رفيق القلب" " – الشيخ أحمد سحنون – ط: مطبعة الدار – الجزائر – دون تاريخ.
- " الشوقيات " – أحمد شوقى – ط: دار الكتاب العربى – بيروت – دون تاريخ.
- " ديوان الشيخ ضياء الدين رجب " – تحقيق: هاشم دفتر دار المدنى – ط :نادى جدة – الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- " ديوان وراء الغمام" – إبراهيم ناجى – ط: دار العودة – بيروت ١٩٨٦م.

**ثالثًا: الدوريات:**

- " الأهرام " – عدد (٢٣/ ٧/ ١٩٥٣، وعدد ٢٤/٣/٢٠٠٤م).
- " الأخبار " – اليوميات – بقلم: سلامة موسى – عدد (١٥/٤/١٩٥٦) .
- " مجلة العربى" – عدد (٦٥٦ مارس ٢٠١٢).

رابعًا: شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت" مواقع:

- **www.rabitat alwaha.net**
- **www.ahl alhadeeth.com**
- **Whttp:// ar.wikipedia.org**
- **www.almajam.org**

* * *

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مقدمة | ٣٣٩٩ |
| الفصل الأول: الخطاب الأدبى إلى الأبناء ألمًا وحزنًا | ٣٤٠١ |
| المبحث الأول: في الفقد والرثاء . | ٣٤٠٣ |
| المبحث الثانى: في الصبر والعزاء . | ٣٤٢٠ |
| الفصل الثانى: الخطاب الأدبى إلى الأبناء أملاً ورجاءً | ٣٤٣٣ |
| المبحث الأول: في البهجة والفرح . | ٣٤٣٤ |
| المبحث الثانى: في النصح والإرشاد . | ٣٤٤٦ |
| خاتمة | ٣٤٥٧ |
| فهرس المصادر والمراجع . | ٣٤٥٩ |
| فهرس الموضوعات . | ٣٤٦٣ |